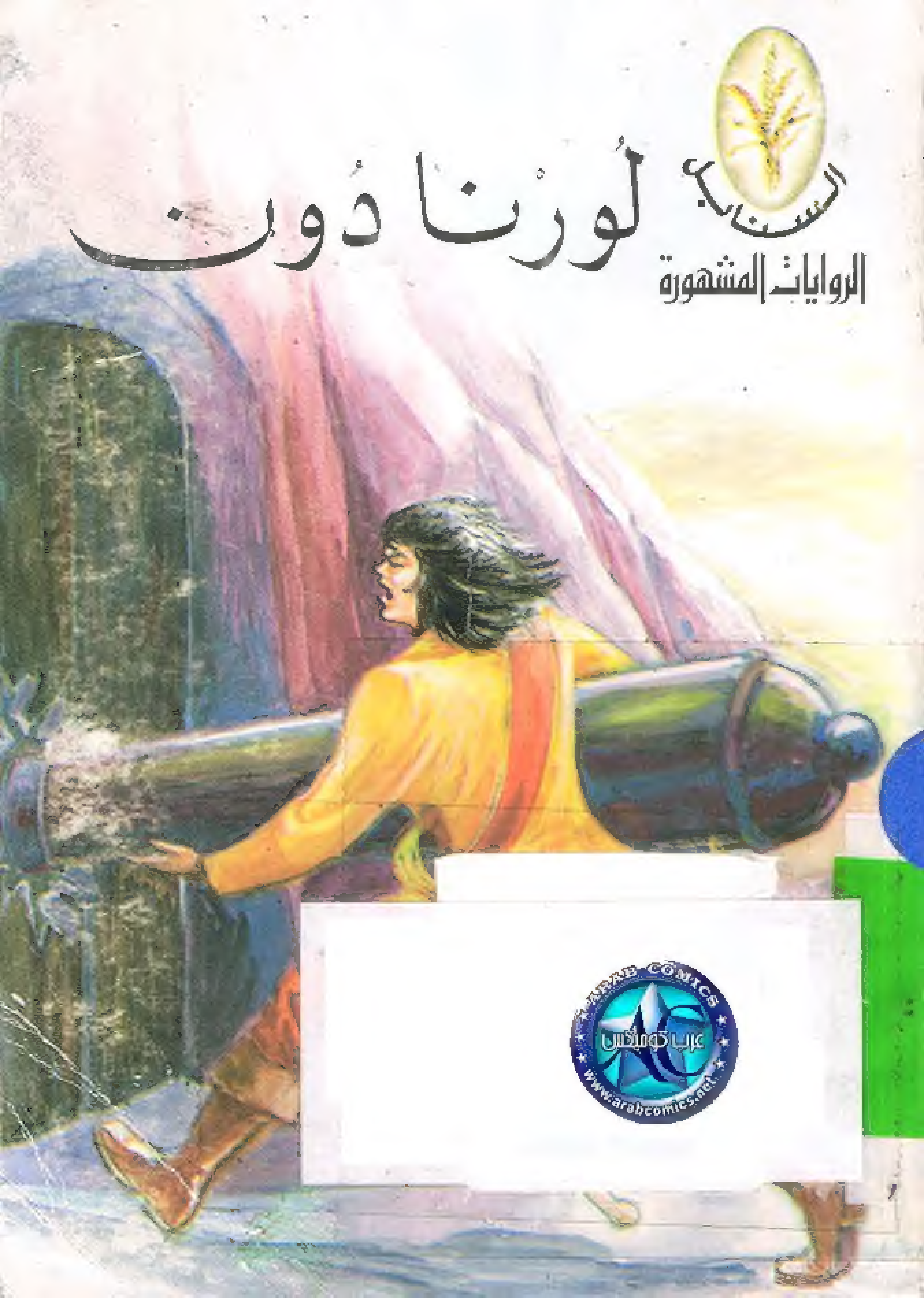

سنابل
لورنا دون
الروايات المشهورة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net





تـأليف : ر. د. بلاكمور

إعـداد : شوقي رياض السنورسي

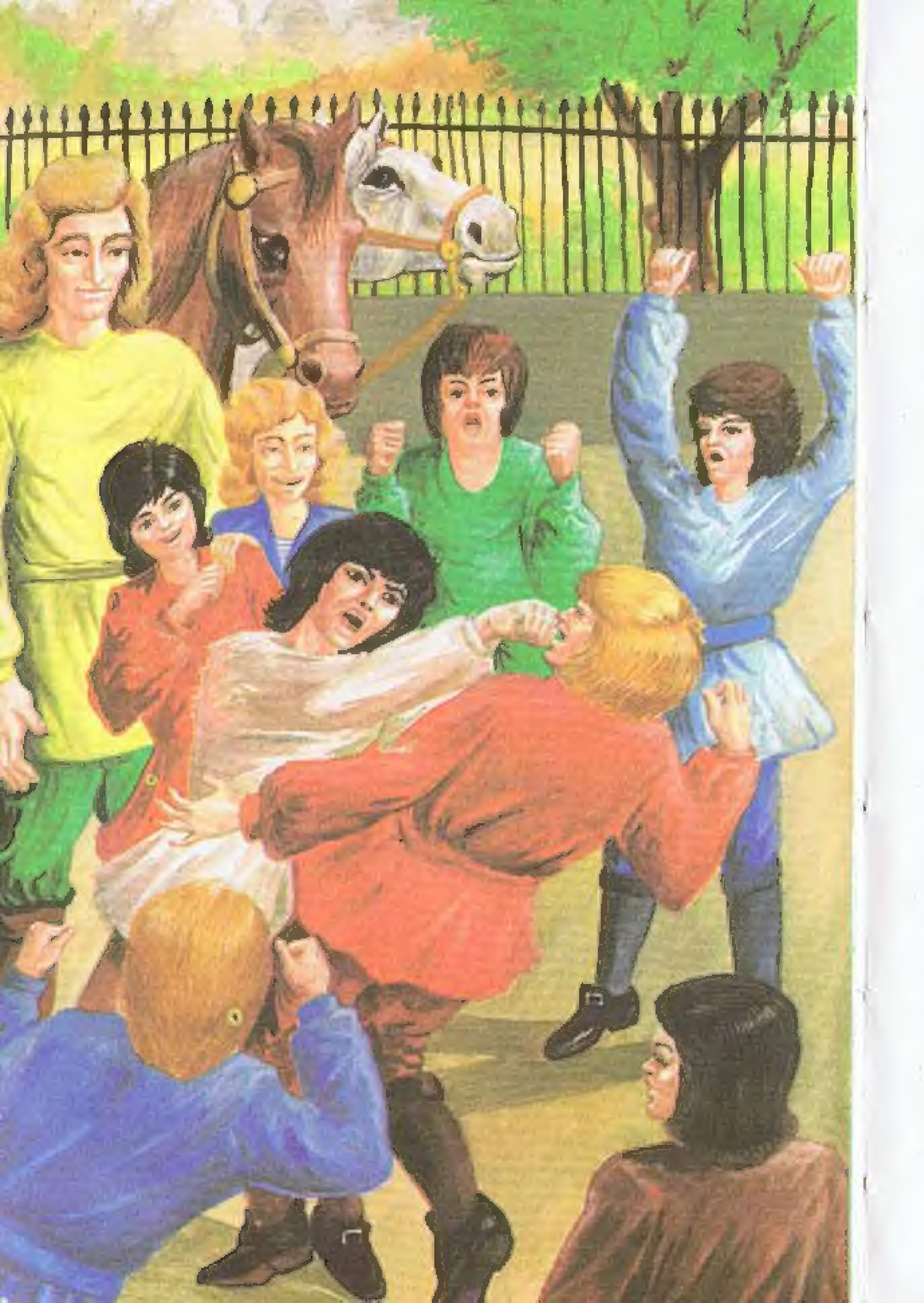
رسـوم : محمّد نبيل عبد العزيز

مكتبة لبنان

بيروت

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩١ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٩-٥

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة



الفَصلُ الأَوَّلُ

انقِطاعي عَنِ المَدرَسةِ

اسْمِي جُون رِد ، وَأَعيشُ في قَرْيَةِ « أُوير » بِإقْليمِ « سُومِرْسِت » بِإنْجِلْترا . وَسَوْفَ أَحْكي لَكُمْ عَنْ أَحْداثٍ مُثيرةٍ وَقَعَتْ في هٰذِهِ البُقْعةِ مِنَ العالَمِ خِلالَ حَياتي .

كانَ والِدي يَعْمَلُ في مَزْرَعةٍ آلَتْ إلَيْهِ عَنْ جَدِّي . وَقَدْ تَوارَثْنا هٰذِهِ المَزْرَعةَ أَبًا عَنْ جَدٍّ مُنْذُ مِئاتِ السِّنينَ . وَلَمَّا حانَ وَقْتُ انْتِظامي في الدِّراسةِ ، ٱلتَحَقْتُ بِمَدْرَسةِ « بْلَنْدِل » في مَدينةِ « تِيفِرْتُون » . وَلَوْ أَمْعَنْتَ النَّظَرَ في إحْدَى اللَّوْحاتِ المُعَلَّقةِ بِهٰذِهِ المَدْرَسةِ ، لَقَرَأْتَ اسْمِي مَحْفُورًا عَلَيْها . وَلَمْ أَتَلَقَّ سِوَى قَليلٍ مِنَ العِلْمِ بِها ، لِأَنَّني تَرَكْتُها مُبَكِّرًا .

وَهٰذِهِ قِصَّةُ تَرْكي لِلْمَدْرَسةِ في التَّاسِعِ وَالعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِر عامَ ١٦٧٣ م .

كُنْتُ عائِدًا مِنَ المَدْرَسةِ مَعَ زُمَلائي في السَّاعةِ الخامِسةِ حِينَ كانَ صَفٌّ طَويلٌ مِنَ الجِيادِ المُحَمَّلةِ بِالبَضائِعِ يَسيرُ عَلَى الطَّريقِ في حِراسةِ بَعْضِ الجُنودِ ؛ إذْ كانَ يُظَنُّ أَنَّ مِسْتَر فاجَس قَريبٌ مِنَ المَكانِ ، وَأَنَّهُ قَدْ يَسْطو عَلَى هٰذِهِ البَضائِعِ . وَكانَ مِسْتَر فاجَس ابْنَ عَمِّي ، وَكانَ مَعْروفًا لِلْجَميعِ بِأَنَّهُ مِنْ قُطَّاعِ الطُّرُقِ .

أَسْرَعْنا جَميعًا نَحْوَ بَوَّابةِ المَدْرَسةِ لِنَرَى الجِيادَ وَالجُنودَ وَهُمْ يَمُرُّونَ .

وَبَيْنَما كُنّا نَتَدافَعُ لِلْخُروجِ ، لَكَمَني أَحَدُ التَّلاميذِ ، وَاسْمُهُ رُوبِن سْنِلّ ، في بَطْني . وَتَمَلَّكَني الغَضَبُ ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ بِلَكْمَةٍ في وَجْهِهِ . فَانْدَفَعَ إِلَيَّ وَضَرَبَني بِعُنْفٍ ضَرْبَةً أَوْقَعَتْني أَرْضًا .

تَصايَحَ الغِلْمانُ : « انْهَضْ ياجُون ! لَقَدْ ضَرَبَكَ وَرَدَدْتَ إِلَيْهِ الضَّرْبَةَ ، وَلَنْ يَحْسِمَ الأَمْرَ بَيْنَكُما سِوَى مَعْرَكَةٍ . »

اقْتَرَبَ مِنَ المَكانِ رَجُلٌ يَجُرُّ جَوادَيْنِ . وَسَأَلَ الرَّجُلُ : « هَلْ رَأى أَحَدٌ مِنْكُمْ جُون رِد ؟ » كانَ السّائِلُ هُوَ جُون فراي الخادِمَ في مَنْزِلِنا .

تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ قائِلًا : « لِماذا حَضَرْتَ في هٰذا الوَقْتِ ياجُون ؟ إِنَّ الدِّراسَةَ مُسْتَمِرَّةٌ حَتَّى الشَّهْرِ القادِمِ ، وَأَمامي شَهْرٌ آخَرُ مِنَ الدِّراسَةِ . »

أَدارَ جُون فراي وَجْهَهُ بَعيدًا عَنّي ، ثُمَّ قالَ :

« أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، غَيْرَ أَنَّ أُمَّكَ في المَنْزِلِ تَطْهو الطَّعامَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ لَكَ الآنَ . »

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ حالُ والِدي ؟ لَقَدِ اعْتادَ دائِمًا أَنْ يَأْتِيَ في بَدْءِ الإِجازَةِ لِاصْطِحابي إِلى البَيْتِ . »

أَجابَ جُون فراي ، وَقَدْ خَفَضَ بَصَرَهُ : « إِنَّهُ الآنَ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ التَّلِّ . » وَأَدْرَكْتُ حينَئِذٍ أَنَّهُ لا يُخْبِرُني بِالحَقيقَةِ .

سَأَلْتُهُ : « هَلْ يُمْكِنُني أَنْ أُنْهِيَ المَعْرَكَةَ مَعَ هٰذا الغُلامِ أَوَّلًا ياجُون ، أَمْ يَتَحَتَّمُ أَنْ نَرْحَلَ الآنَ ؟ »

أَجابَ : « كَلّا ! بَلْ خُضِ المَعْرَكَةَ . سَوْفَ تَخوضُ مَعارِكَ كَثيرَةً في

حَياتِكَ ، وَلابَأْسَ مِنْ أَنْ تَبْدَأَ مِنَ الآنَ . »

كانَ رُوبِن سْنِلّ أَضْخَمَ مِنّي جِسْمًا . وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُرَكِّزَ ذِهْني في المَعْرَكَةِ بادِئَ الأَمْرِ ، إِذْ كُنْتُ أُفَكِّرُ فيما قالَهُ جُون فراي عَنْ والِدي . وَلٰكِنْ ما إِنْ لَكَمَني رُوبِن في وَجْهي حَتّى جُنَّ جُنوني ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ الضَّرْبَةَ في الحالِ . وَدارَ النِّزالُ بَيْنَنا نَحْوَ ثَلاثِ دَقائِقَ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صاحَ الغُلامُ الَّذي يَحْكُمُ بَيْنَنا قائِلًا : « انْتَهَتِ الجَوْلَةُ ! »

تَوَقَّفْنا وَاسْتَرَحْنا قَليلًا . وَبَدَأَتِ الجَوْلَةُ الثّانِيَةُ أَكْثَرَ حَذَرًا ، إِذْ أَخَذْتُ أُناوِرُ خَصْمي إِلى أَنْ تَمَلَّكَهُ الإِجْهادُ . وَكانَ جُون فراي خارِجَ حَلْقَةِ الأَوْلادِ ، يَقْتَرِبُ بَيْنَ الحينِ وَالحينِ لِيَسْأَلَ عَنْ أَنْباءِ المَعْرَكَةِ .

« سَلِمَتْ يَمينُكَ ياجُون ! » هَتَفَ بَعْضُ المُتَفَرِّجينَ ، عَلى حينَ صاحَ آخَرونَ :

« أَجْهِزْ عَلَيْهِ ! اِطْرَحْهُ أَرْضًا ! »

مَرَّةً أُخْرى سَمِعْتُ الحَكَمَ يَصيحُ : « انْتَهَتِ الجَوْلَةُ ! »

وَفي الجَوْلَةِ الأَخيرَةِ عَقَدْتُ العَزْمَ عَلى أَنْ أَنْتَصِرَ عَلى رُوبِن سْنِلّ أَوْ لا أَرى مَنْزِلي أَبَدًا مَرَّةً ثانِيَةً . وَقَهْقَهَ الخَصْمُ ساخِرًا في وَجْهي ، فَتَمَلَّكَني غَضَبٌ شَديدٌ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَدَّدَ إِلَيَّ ضَرْبَةً بِيَدِهِ اليُسْرى غَيْرَ أَنَّني تَفادَيْتُها بِحَرَكَةٍ مِنْ رَأْسي . وَسَرْعانَ ما ناوَلْتُهُ بِيَميني لَكْمَةً قَوِيَّةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ . كانَتْ تِلْكَ هِيَ الضَّرْبَةَ القاضِيَةَ الَّتي أَنْهَتِ المَعْرَكَةَ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ عاوَنْتُ في حَمْلِ رُوبِن سْنِلّ إِلى فِراشِهِ .

الفصلُ الثّاني

مُعاداةُ آلِ دُون

كانَ الطَّريقُ مِنْ تِيفِرْتُون إلى أُوِير طَويلًا وَوَعْرًا . وَكانَ مِنَ العَسيرِ عَلى المُسافِرِ أَنْ يَطْمَئِنَّ إلى مَواضِعِ خُطاهُ في بَعْضِ أَجْزاءِ هٰذا الطَّريقِ .

غادَرْنا تِيفِرْتُون مُبَكِّرَيْنِ في الصَّباحِ ، وَعَبَرْنا نَهْرَيْنِ ، ثُمَّ وَصَلْنا دَلْفِرْتُون في مُنْتَصَفِ النَّهارِ . وَكانَ جُون فراي يُخْفي عَنّي سَبَبَ حُضُورِهِ المُفاجِئِ ؛ كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ يَكْذِبُ عَلَيَّ .

تناوَلْنا طَعامَ الغَداءِ في دَلْفِرْتُون ، ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى فِناءِ الدّارِ الَّتي نَزَلْنا بِها لِأَغْسِلَ يَدَيَّ . حِينَئِذٍ خَرَجَتْ مِنَ البَيْتِ امْرَأَةٌ شابَّةٌ ، كانَ يَبْدُو أَنَّها إِيطالِيَّةٌ . وَتَطَلَّعَتْ إِلَيَّ قائِلَةً : « تَعالَ إِلَيَّ يا صَغيرِيَ العَزيزَ . أَنا « بِينِيتّا » خادِمَةُ السَّيِّدةِ المُبَجَّلَةِ . يا إِلٰهي ! ما هٰذِهِ الآثارُ الزَّرْقاءُ الَّتي تَظْهَرُ عَلى وَجْهِكَ ؟ هَلْ ضَرَبَكَ أَحَدٌ ؟ »

أَجَبْتُها في اقْتِضابٍ : « يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ الآنَ . إِنَّ جُون فراي يَنْتَظِرُني . »

سَأَلَتِ المَرْأَةُ : « كَمْ تَبْعُدُ بَلْدَةُ « واتْشِت » عَنْ هُنا ؟ »

« إِنَّها تَبْعُدُ مَسافَةً طَويلَةً ، وَالطَّريقُ إِلَيْها وَعْرٌ مِثْلُ الطَّريقِ إِلى أُوِير . »

« أُوِير ! سَوْفَ أَتَذَكَّرُ هٰذا المَكانَ جَيِّدًا . هَلْ تَعيشُ هُناكَ ؟ قَدْ أَذْهَبُ

إلى هٰذِهِ البَلْدَةِ ذاتَ يَوْمٍ لِأَراكَ . وَالآنَ أَرْجوكَ أَنْ تَمْلَأَ لِسَيِّدَتي هٰذا الكُوبَ ماءً . »

مَلَأْتُ الكُوبَ ، وَعادَتِ المَرْأَةُ أَدْراجَها إلى الدّارِ .

امْتَطَيْنا – أَنا وَجُون فراي – جَوادَيْنا . وَما إِنْ سِرْنا بَعْضَ الوَقْتِ حَتّى مَرَرْنا بِمَرْكَبَةٍ ضَخْمَةٍ تَصْعَدُ الجَبَلَ تَجُرُّها سِتَّةُ جِيادٍ . وَلَمَحْتُ في داخِلِ المَرْكَبَةِ الخادِمَةَ الَّتي قابَلْتُها حِينَ كُنْتُ أَغْسِلُ وَجْهي ، وَكانَتْ في رِفْقَةِ سَيِّدَةٍ تَبْدو عَلَيْها عَلاماتُ الهَيْبَةِ وَالوَقارِ . وَكانَتْ تَجْلِسُ إلى جِوارِ السَّيِّدَةِ فَتاةٌ صَغيرَةٌ ذاتُ شَعْرٍ فاحِمٍ رائِعِ الجَمالِ . وَرَفَعْتُ قُبَّعَتي تَحِيَّةً لَهُنَّ ، فَلَوَّحَتْ لي الفَتاةُ . وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما اخْتَفَتِ المَرْكَبَةُ عَنِ الأَنْظارِ عِنْدَما عَرَّجْنا إلى طَريقٍ جانِبِيٍّ وَانْطَلَقْنا في طَريقِنا . وَكانَ الضَّبابُ الكَثيفُ يُظَلِّلُ تِلْكَ المِنْطَقَةَ حَتّى أَصْبَحَ مِنَ العَسيرِ أَنْ نَرى أَبْعَدَ مِنْ خُطْوَةٍ أَوْ خُطْوَتَيْنِ .

كانَ جُون فراي عَلى وَشْكِ أَنْ يَغْفُوَ عِنْدَما تَنَبَّهَ قائِلًا : « أَيْنَ نَحْنُ الآنَ ؟ »

فُوجِئْتُ بِشَيْءٍ مُتَدَلٍّ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتي أَمامي ، وَغَشِيَني رُعْبٌ شَديدٌ . كانَ هٰذا الشَّيْءُ جُثَّةَ رَجُلٍ !

سارَعْتُ أَسْأَلُ : « مَنْ هٰذا الشَّخْصُ المُعَلَّقُ عَلى الشَّجَرَةِ ياجُون ؟ هَلْ شَنَقُوا واحِدًا مِنْ عائِلَةِ دُون ؟ »

« شَنَقُوا واحِدًا مِنْ عائِلَةِ دُون !! لا تَكُنْ أَحْمَقَ ، فَإِنَّ المَلِكَ نَفْسَهُ لا يَجْرُؤُ عَلى شَنْقِ أَحَدِ أَفْرادِ هٰذِهِ العائِلَةِ ! هٰذا لِصٌّ يُدْعَى رِد جِيم . »



استأنفنا السَّيْر . وأرَدْتُ أنْ أعْرِف المَزيدَ عَنْ رد جيم ، فسألْتُ : « مَنْ هُوَ رد جيم ؟ »

أجابَ جُون : « صَهٍ ! نحْنُ الآنَ عَلى مَقْرَبةٍ مِنَ الطَّريقِ الخاصِّ بآلِ دُون . يَجِبُ أنْ نَسيرَ في هُدوءٍ تامٍّ ، فَقَدْ يَخْرُجونَ اللَّيْلةَ في إحْدَى جَوْلاتِهِمْ بِالمِنْطَقة . آل دُون قَتَلةٌ ، لُصوصٌ ! وَهُمْ عائِلةٌ شَهيرةٌ في إقْليمِ « باغورْذي » ، يَكْرَهُها الجَميعُ وَيَخْشَوْنَها بِشِدَّةٍ . »

« وَلٰكِنْ هَلْ تَظُنُّ ياجُون أنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ رُؤْيَتَنا في مِثْلِ هٰذا الضَّبابِ الكَثيف ؟ »

« إنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ الرُّؤْيةَ مَهْما كانَ الضَّبابُ كَثيفًا . لَمْ يُوجَدْ بَعْدُ ضَبابٌ يَحْجُبُ الرُّؤْيةَ عَنْ أبْصارِ آلِ دُون . وَالآنَ يابُنَيّ ، هَيَّا نَنْطَلِقُ في هُدوءٍ ، إذا كُنْتَ تَبْغي البَقاءَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ حَتَّى تَرَى أُمَّكَ . »

وَصَلْنا واديًا عَميقًا . وَقَبْلَ أنْ نَهْبِطَ إلَيْهِ سَمِعْتُ وَقْعَ حَوافِرِ جيادٍ تَعْدُو فَوْقَ الأرْضِ الرِّخْوةِ ، وَصَوْتَ أنْفاسٍ لاهِثةٍ لِفُرْسانٍ مُتْعَبينَ .

ناداني جُون في صَوْتٍ خَفيضٍ قائِلًا : « انْزِلْ مِنْ فَوْقِ حِصانِكَ ، وَأطْلِقْهُ . »

استَلْقَيْنا عَلى الأرْضِ خَلْفَ شُجَيْرةٍ . وَكانَ الطَّريقُ يَمْتَدُّ طَويلًا مِنْ تَحْتِنا . وَفي الحالِ مَرَّ أوَّلُ الرَّاكِبينَ ، ثُمَّ انْقَشَعَ الضَّبابُ فَجْأةً فَظَهَرَ لَنا ضَوْءٌ أحْمَرُ مِنْ بَعيدٍ .

هَمَسَ جُون في أُذُني قائِلًا : « إِنَّها ٱلنَّارُ يُشْعِلونَها فَوْقَ جَبَلِ « دَنكِري » لِيُبَيِّنوا لِرِجالِ آلِ دُون ٱلطَّريقَ إلى مَنازِلِهِمْ . »

كُنْتُ مُسْتَلْقِيًا عَلى ٱرْتِفاعِ عِشْرينَ قَدَمًا فَقَطْ فَوْقَ ٱلرّاكِبينَ .

كانُوا رِجالًا ضِخامًا مُسَلَّحينَ بِٱلبَنادِقِ ، كَما كانُوا يَحْمِلونَ ٱلأَشْياءَ ٱلَّتي نَهَبوها فَوْقَ جِيادِهِمْ : فَناجينَ مَصْنوعَةً مِنَ ٱلفِضَّةِ وَٱلذَّهَبِ ، وَحَقائِبَ ، وَصَناديقَ ، وَأَغْنامًا مَذْبوحَةً . وَكانَ أَحَدُهُمْ يَحْمِلُ فَتاةً صَغيرَةً عَلى جَوادِهِ . كانَتْ تَرْتَدي مَلابِسَ جَميلَةً جَذّابَةً ، وَكانَتْ هِيَ ٱلفَتاةَ نَفْسَها ٱلَّتي سَبَقَ أَنْ رَأَيْتُها جالِسَةً في ٱلمَرْكَبَةِ .

لَمْ يَكُنْ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالُ ٱلأَشِدّاءُ يَعْلَمونَ حينَئِذٍ أَنَّ هٰذِهِ ٱلفَتاةَ ٱلصَّغيرَةَ سَوْفَ تَكونُ في ٱلسَّنَواتِ ٱلقادِمَةِ سَبَبَ هَلاكِهِمْ وَإِحْراقِ بُيوتِهِمْ .

لَمْ يَأْتِ وَالِدي لِلِقائي . وَعِنْدَ بابِ ٱلدّارِ تَناهَى صَوْتُ نَحيبٍ إلى أُذُنَيَّ . وَكانَتْ أُمّي هِيَ ٱلَّتي تَبْكي .

لَقَدْ ماتَ والِدي ... قَتَلَهُ آلُ دُون ٱلمُجْرِمونَ !

الفَصْلُ ٱلثّالِثُ

مَقْتَلُ والِدي

قُتِلَ والِدي بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ آلِ دُون .

كانَ عائِدًا عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ إلى ٱلمَنْزِلِ مِنْ بَلْدَةِ « بورْلُوك » ٱلصَّغيرَةِ بِصُحْبَةِ خَمْسَةِ مُزارِعينَ . وَفَجْأَةً ظَهَرَ أَمامَهُمْ رَجُلٌ مِنْ آلِ دُون ، وَأَمَرَهُمْ بِتَسْليمِ كُلِّ ما مَعَهُمْ مِنْ نُقودٍ . وَشَرَعَ ٱلمُزارِعونَ ٱلخَمْسَةُ في تَنْفيذِ ٱلأَمْرِ ، وَلٰكِنَّ والِدي تَقَدَّمَ بِجَوادِهِ مُباشَرَةً نَحْوَ ذٰلِكَ ٱلشَّخْصِ وَحاوَلَ أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصاهُ . وَعِنْدَئِذٍ هاجَمَ والِدي اثْنا عَشَرَ رَجُلًا كانُوا مُخْتَبِئينَ ، فَطَرَحَ ثَلاثَةً مِنْهُمْ أَرْضًا ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدَ ٱلباقينَ واسْمُه كارْفَر دُون كانَ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً أَطْلَقَها عَلى والِدي . وَفي ٱلصَّباحِ ٱلتّالي وُجِدَتْ جُثَّتُهُ مُلْقاةً وَتَحْتَها عَصاهُ ٱلمَكْسورَةُ .

تَرَكَ والِدي ثَلاثَةً مِنَ ٱلأَبْناءِ ، أَكْبَرُهُمْ أَنا – جُون رِد – وَكانَتِ ٱلوُسْطى هِيَ أُخْتي آني . أَمّا ٱلصُّغْرى فَكانَتْ تُدْعى ليزي .

الفصلُ الرَّابعُ

قُدومُ آلِ دُون إلى باغوزدي

لَعَلَّهُ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ أَحْكيَ لَكُمْ طَرَفًا مِنْ تاريخِ آلِ دُون : مَنْ هُمْ ، وَكَيْفَ أَتَوْا إلى باغوزْدي .

فَفي عامِ ١٦٤٠ ، أَيْ قَبْلَ أَنْ أَتْرُكَ المَدْرَسةَ بِثَلاثينَ عامًا ، كانَ هُناكَ رَجُلانِ يَمْتَلِكانِ مَعًا مِساحاتٍ شاسِعةً مِنَ الأَرْضِ في إِنْجِلْترا . وَكانا يَقْتَسِمانِ رَيْعَ هٰذِهِ الأَرْضِ فيما بَيْنَهُما بِالتَّساوي . كانَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ هُوَ لُورد لورن ، أَمّا الآخَرُ فَكانَ يُدْعى سِيْر إِنْسُور دُون .

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اخْتَلَفَ الرَّجُلانِ . فَقَدْ أَرادَ لُورد لورن أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنِصْفِ الأَرْضِ لِنَفْسِهِ . أَصْبَحَ لا يَرْضى بِنِصْفِ دَخْلِ الأَرْضِ مُجْتَمِعةً ، وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إلى الاسْتِحْواذِ عَلى نِصْفِ الأَرْضِ ذاتِها .

وَلَجَأَ كُلٌّ مِنْ لُورد لورن وَسِيْر إِنْسُور إلى المَحْكَمةِ في لَنْدَن . وَاسْتَمَعَ القاضي إلى وَقائِعِ النِّزاعِ بَيْنَهُما ، ثُمَّ حَكَمَ بِأَنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُما الحَقُّ في امْتِلاكِ تِلْكَ الأَراضي .

غَضِبَ سِيْر إِنْسُور لِذٰلِكَ غَضَبًا شَديدًا ، وَعَزَمَ عَلى أَنْ يَخْرُجَ عَلى القانونِ . وَهاجَرَ إلى رُكْنٍ بَعيدٍ مُنْعَزِلٍ مِنْ إِنْجِلْترا حَيْثُ اكْتَشَفَ واديًا تُحيطُ بِهِ أَسْوارٌ عالِيةٌ مِنَ الصُّخورِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتَقَرَّ هُناكَ . وَفي بادِئِ الأَمْرِ ،

كانَ في صُحْبةِ سِيْر إِنْسُور اثْنا عَشَرَ رَجُلًا ، وَلٰكِنْ بِمُرورِ الوَقْتِ ، أَصْبَحَ عَدَدُهُمْ كَبيرًا ، بَعْدَ أَنِ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ آخَرونَ . وَعاشَ آلُ دُون في سَلامٍ أَوَّلَ الأَمْرِ ، وَلَمْ يُلْحِقوا أَذًى بِأَيِّ شَخْصٍ . وَتَعاطَفَ المُزارِعونَ وَسائِرُ النّاسِ في المِنْطَقةِ مَعَ سِيْر إِنْسُور إِذْ كانوا يَعْرِفونَ مَدى الظُّلْمِ الَّذي وَقَعَ عَلَيْهِ . غَيْرَ أَنَّ آلَ دُون سُرْعانَ ما بَدَأُوا يَسْرِقونَ المُزارِعينَ ، وَيَقْطَعونَ الطَّريقَ عَلى المُسافِرينَ ، وَيَقْتُلونَ كُلَّ مَنْ يَتَصَدّى لَهُمْ . عِنْدَئِذٍ أَخَذَ النّاسُ يَمْقُتونَ آلَ دُون وَيَخْشَوْنَهُمْ ؛ وَلٰكِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَجْرُؤْ عَلى مُقاتَلَتِهِمْ إِذْ كانوا شَديدي البَأْسِ . كانَ كُلُّ رِجالِ عائِلةِ دُون عَمالِقةً أَقْوِياءَ ، وَكانوا يُدَرَّبونَ مُنْذُ نُعومةِ أَظْفارِهِمْ عَلى إِصابةِ الهَدَفِ في الرِّمايةِ .

كُنْتُ غُلامًا حينَما قُتِلَ والِدي . وَلٰكِنَّني كُنْتُ واثِقًا مِنْ أَنَّ لي دَوْرًا قادِمًا في هٰذِهِ الحَياةِ . وَأَخَذْتُ بُنْدُقيَّةَ والِدي وَشَرَعْتُ أَتَدَرَّبُ عَلى إِطْلاقِها ، وَعَلى إِصابةِ الهَدَفِ بِها . لَقَدْ صَمَّمْتُ عَلى أَنْ أُعِدَّ نَفْسي لِذٰلِكَ اليَوْمِ المَشْهودِ الَّذي سَوْفَ أَقْتُلُ فيهِ كارْفَر دُون .

لا بُدَّ أَنْ أَقْتُلَ الرَّجُلَ الَّذي قَتَلَ والِدي .

الفَصْلُ الخامِسُ

أَنْقَذَتْني الصَّخْرةُ

هُناكَ بِالقُرْبِ مِنْ مَزْرَعَتِنا نَهْرانِ : نَهْرُ باغُورْدي وَنَهْرُ لِنّ ؛ وَعَلى بُعْدِ مِيلَيْنِ جَنوبَ المَزْرَعةِ ، يَتَلاقى هٰذانِ النَّهْرانِ وَيُصْبِحانِ نَهْرًا واحِدًا عَريضًا ، يَتَدَفَّقُ عَبْرَ التِّلالِ العالِيةِ ، وَالغاباتِ المُعْتِمةِ مُكَوِّنًا بُحَيْراتٍ صَغيرةً تَكْثُرُ فيها الأَسْماكُ .

في فَصْلِ الصَّيْفِ ، كُنْتُ أَقْصِدُ هٰذِهِ البُحَيْراتِ كَثيرًا مَعَ أُخْتي آني لِصَيْدِ السَّمَكِ ، كَما كُنْتُ أَذْهَبُ إِلَيْها بِمُفْرَدي في بَعْضِ الأَحْيانِ . كُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ الرّابِعةَ عَشْرةَ مِنْ عُمْري في ذٰلِكَ الوَقْتِ . وَكانَتْ أُمّي مَريضةً مُنْذُ فَتْرةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّها تُحِبُّ السَّمَكَ .

ذاتَ صَباحٍ بارِدِ النَّسَماتِ مِنْ أَيّامِ الرَّبيعِ ، خَرَجْتُ حامِلًا سَلَّتي لِأَصْطادَ لِأُمّي سَمَكًا . وَسِرْتُ مَسافةَ مِيلَيْنِ عَلى وَجْهِ التَّقْريبِ . وَسَيَظَلُّ هٰذا اليَوْمُ عالِقًا بِذِهْني ما حَييتُ ، إِذْ ما زِلْتُ أَتَذَكَّرُ الأَشْجارَ الَّتي كانَتْ تَتَهَيَّأُ لِاسْتِقْبالِ الرَّبيعِ ، كَما أَتَذَكَّرُ بُرودةَ الماءِ الَّذي كُنْتُ واقِفًا فيهِ . وَسِرْتُ نَحْوَ مِيلَيْنِ في الماءِ ، وَأَنا أُحاوِلُ أَنْ أَلْتَقِطَ سَمَكةً مِنْ هٰذا المَوْضِعِ أَوْ ذاكَ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَتَيْتُ إِلى مَكانٍ اِزْدادَ فيهِ اتِّساعُ النَّهْرِ . وَكانَ الماءُ شَديدَ البُرودةِ فيهِ ، فَرَغِبْتُ في العَوْدةِ إِلى البَيْتِ لِأَنَّني لَمْ أُوَفَّقْ في اصْطِيادِ شَيْءٍ .

جَلَسْتُ عَلى ضِفَّةِ النَّهْرِ أَفْرُكُ ساقَيَّ ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ بَعْضَ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ

وَبَدَأْتُ أَتَناوَلُهُ . وَما إِنْ أَكَلْتُ حَتّى شَعَرْتُ بِالقُوَّةِ تَدِبُّ في جَسَدي ، فَعَزَمْتُ عَلى أَنْ أَمْضِيَ في اتِّجاهِ مَنْبَعِ النَّهْرِ حَتّى أَصِلَ إِلى وادي آلِ دُون . كانَتِ المِياهُ بارِدةً جِدًّا . وَكانَتْ هُناكَ أَماكِنُ مُعْتِمةٌ مِنَ النَّهْرِ تَمْتَدُّ تَحْتَ ظِلالِ الأَشْجارِ الكَثيفةِ . وَشَعَرْتُ بِالخَوْفِ الشَّديدِ وَأَنا أَعْبُرُ تِلْكَ الأَماكِنَ ؛ فَقَدْ كانَتِ الأَشْجارُ السّامِقةُ تَنْتَصِبُ حَوْلي وَقَدْ تَساقَطَتْ أَوْراقُها ، عَلى حِينَ ارْتَفَعَتْ أَمامي أَغْصانُها الضَّخْمةُ مِثْلَ أَذْرُعٍ تَتَهَيَّأُ لِضَرْبي . غَيْرَ أَنَّني حَصَلْتُ عَلى سَمَكٍ كَثيرٍ خِلالَ تِلْكَ المَسيرةِ .

لَمْ أَهْتَمَّ بِمُرورِ الوَقْتِ ، وَاسْتَأْنَفْتُ الخَوْضَ في المِياهِ . وَكُنْتُ أَصيحُ فَرِحًا كُلَّما أَمْسَكْتُ بِسَمَكةٍ ، فَأَسْمَعُ صَدى صَوْتي يَرْتَدُّ مِنَ الجِبالِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ صَوْتٌ آخَرُ يَتَرَدَّدُ في ذٰلِكَ الجَوِّ الهادِئِ البارِدِ .

أَتَيْتُ إِلى فُسْحةٍ بَيْنَ الأَشْجارِ وَرَأَيْتُ أَمامي كُتْلةً مِنَ المِياهِ عَلى شَكْلِ بِرْكةٍ مُسْتَديرةٍ وَعَميقةٍ . كانَ الماءُ يَدورُ سَريعًا في هٰذِهِ البِرْكةِ . وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ إِلى الصَّخْرةِ العالِيةِ الَّتي عَلى الجانِبِ الآخَرِ فَرَأَيْتُ مَسيلَ ماءٍ صافٍ يَنْحَدِرُ عَلى جانِبِ الصَّخْرةِ . وَكانَ مَنْظَرًا بَديعًا .

كانَ بِاسْتِطاعَتي أَنْ أَسْبَحَ ، وَلٰكِنَّني كُنْتُ مُتْعَبًا وَأَشْعُرُ بِالبَرْدِ ، فَلَمْ أَرْغَبْ في الخَوْضِ في المِياهِ العَميقةِ ، كَيْ لا يَبْتَلَّ جِسْمي كُلُّهُ بِالماءِ (إِذْ كانَتْ ساقايَ فَقَطْ هُما اللَّتَيْنِ ابْتَلَّتا حَتّى ذٰلِكَ الحِينِ .)

كانَتِ الصُّخورُ العالِيةُ تَحْجُبُ ضَوْءَ النَّهارِ . وَعَلا صَخَبُ المِياهِ مِنْ

حَوْلِي ، فَشَعَرْتُ بِالْخَوْفِ . وَأَرَدْتُ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ أَعُودَ أَدْراجِي إِلَى الْمَنْزِلِ . غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَلْبَثْ أَنْ قُلْتُ لِنَفْسِي : « إِنَّ ما يَدْفَعُ بِالْخَوْفِ إِلَى قَلْبِكَ يا جُونْ رِدْ هُوَ مَرْأَى هٰذِهِ الْأَشْجارِ وَالصُّخُورِ ، بِالْإِضافَةِ إِلَى هَدِيرِ الْمِياهِ الدّافِقَةِ ... فَهَلْ أَعُودُ إِلَى أُمِّي لِأُخْبِرَها بِأَنِّي كُنْتُ خائِفًا مِنْ أَشْياءَ لا تَبْعَثُ عَلَى الْخَوْفِ ؟ »

سُرْعانَ ما رَبَطْتُ سَلَّةَ السَّمَكِ إِلَى عُنُقِي ، وَسِرْتُ إِلَى أَسْفَلِ صَخْرَةٍ كانَتْ تَبْرُزُ مِنَ الْماءِ . وَانْزَلَقَتْ قَدَمِي عَلَى النَّباتِ اللَّيِّنِ الْمُبَلَّلِ الَّذِي يَكْسُو الصَّخْرَةَ فَوَقَعْتُ فِي الْماءِ . وَسَبَحْتُ بِقُوَّةٍ ، وَلٰكِنَّ الْمَوْجَ جَرَفَنِي بَعِيدًا إِلَى وَسَطِ النَّهْرِ . وَشَعَرْتُ بِأَنِّي عَلَى شَفا الْمَوْتِ ، لِأَنَّ ساقَيَّ كانَتا تُؤْلِمانِنِي جِدًّا . غَيْرَ أَنِّي تَمَكَّنْتُ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الصَّخْرَةِ وَشَرَعْتُ فِي تَسَلُّقِها وَكانَ الْماءُ يَتَدافَعُ فَوْقَ رَأْسِي ، وَلٰكِنِّي أَخَذْتُ أَصْعَدُها شَيْئًا فَشَيْئًا . وَأَحْسَسْتُ بِالْهَواءِ الْمُنْعِشِ يُداعِبُ وَجْهِي . فَواصَلْتُ الصُّعُودَ فِي شِدَّةٍ وَعَزْمٍ وَسَقَطْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنَ الْإِعْياءِ فَوْقَ الْعُشْبِ الْأَخْضَرِ الَّذِي يَكْسُو قِمَّةَ الصَّخْرَةِ .

الْفَصْلُ السّادِسُ

لِقائِي لُورْنا دُون

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَرَأَيْتُ فَتاةً صَغِيرَةً إِلَى جانِبِي ، وَكانَتْ تَمْسَحُ بِوَرَقَةِ نَباتٍ عَلَى وَجْهِي . قالَتِ الْفَتاةُ : « إِنَّنِي سَعِيدَةٌ جِدًّا . أَراكَ أَحْسَنَ حالًا الْآنَ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

لَمْ أَكُنْ قَدْ سَمِعْتُ فِي حَياتِي مِنْ قَبْلُ صَوْتًا لَهُ عُذُوبَةُ صَوْتِها ، وَلا رَأَيْتُ مَخْلُوقًا بِرَوْعَةِ عَيْنَيْها السَّوْداوَيْنِ وَشَعْرِها الْغَزِيرِ . وَبَدَتْ لِي كَزَهْرَةٍ بَدِيعَةٍ مِنْ أَزْهارِ الرَّبِيعِ الْجَمِيلَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ — وَلَقَدْ ظَلَلْتُ أَراها دائِمًا عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ الْباهِرَةِ فِي السَّنَواتِ التّالِيَةِ — وَرُبَّما راقَ لَها وَجْهِي آنَذاكَ ، فَقَدْ قالَتْ لِي فِيما بَعْدُ إِنَّ وَجْهِي قَدْ أَعْجَبَها حِينَ رَأَتْنِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ .

نَهَضْتُ جالِسًا .

سَأَلَتْنِي : « ما اسْمُكَ ؟ كَيْفَ أَتَيْتَ إِلَى هٰذا الْمَكانِ ؟ وَما هٰذِهِ الْأَشْياءُ الَّتِي فِي سَلَّتِكَ ؟ »

أَجَبْتُ : « هٰذِهِ أَسْماكٌ اصْطَدْتُها لِأُمِّي ، وَلٰكِنَّنِي سَأُعْطِيكِ بَعْضًا مِنْها إِذا أَرَدْتِ . »

صاحَتِ الْفَتاةُ : « ما هٰذا ؟ لَقَدْ جُرِحَتْ ساقُكَ ! سَوْفَ أَرْبُطُها لَكَ . »

قُلْتُ : « هٰذا لا يُهِمُّ . سَوْفَ أَرْبُطُها عِنْدَما أَعُودُ إِلَى مَنْزِلِي . وَلٰكِنَّنِي لَمْ

رَ فتاةً في مثْلِ جمالِكِ مِنْ قبْلُ . إسْمي جُون رد – فما اسْمُكِ ؟ »

أجابَتْني في صوْتٍ حميمٍ . « إسْمي لُورْنا دُون ، كُنْتُ أظُنُّ أنْتَ تعْرفُهُ »

دُون .. كانَ هٰذا الإسْمُ يَعْني بالنِّسْبةِ لي أشْياءَ كثيرةً . هٰذِهِ الفتاةُ إذًا واحِدةٌ مِنْ آلِ دُون الَّذينَ قتلوا والِدي ! وَمَعَ ذٰلِكَ فلَمْ أسْتطِعْ أنْ أكْرهها ! لَقَدْ مَسَّ صَوْتُها شِغافَ قلْبي . كانَ شعْرُها الأسْودُ البديعُ ينْحدرُ على كتِفيْها ، كما كانَتْ تنْبعِثُ مِنْ عيْنَيْها أضْواءٌ وظِلالٌ مِثْلُ ما يَبْعثُهُ ضوْءُ الشَّمْسِ في أعْماقِ الغابةِ . وَبَدَأْتُ أجْمَعُ أشْيائي ، وَأحْدثْتُ في أثْناءِ ذٰلِكَ شيْئًا مِنَ الجَلَبةِ حتّى تَنْتبِهَ إلى أنَّني أوشِكُ على الرَّحيلِ . وَشرعْتُ في السَّيْرِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تطْلُبْ مِنّي البَقاءَ . وَكُنْتُ أعْرِفُ أنّي لَنْ أسْتطيعَ النُّزولَ مِنْ فوْقِ تِلْكَ الصَّخْرةِ ، وَأنّي قدْ أسْقُطُ وَألْقى مَصْرَعي إذا ما حاوَلْتُ ذٰلِكَ . وبَعْدَ لَحظاتٍ الْتَفَتُّ إلى الفتاةِ قائِلًا : « لُورْنا ! »

فالْتفتَتْ نَحْوي قائِلةً : « لَقَدْ ظَنَنْتُ أنَّكَ قدْ رَحَلْتَ .. لِماذا أتَيْتَ إلى هٰذا المَكانِ ؟ ألا تعْرِفُ ما سَوْفَ يَفْعَلُهُ آلُ دُون إذا شاهَدوكَ تَجْلِسُ ها هُنا مَعي ؟ »

« سَوْفَ يَضْرِبونَني ، وَلٰكِنَّهُمْ لَنْ يَجْرُؤوا على ضَرْبِكِ أنْتِ . »

« سَوْفَ يَقْتُلونَنا ، وَيَرْمونَ بِجُثَّتَيْنا في الماءِ . »

سَأَلْتُ : « وَلٰكِنْ لِماذا يَقْتُلونَني ؟ »



« لِأَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ ٱلطَّرِيقَ ٱلسِّرِّيَّ إِلى وادي آلِ دُون . وَٱلآنَ ، أَرْجوكَ أَنْ تَذْهَبَ . أَنْتَ تَروقُ لي كَثيرًا ، وَلَسَوْفَ أُناديكَ مِنَ ٱلآنَ بِٱسْمِكَ ٱلْأَوَّلِ جُون وَعِنْدَما تُشْفى ساقُكَ تَمامًا ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتِيَ ثانِيَةً لِرُؤْيَتي . »

قُلْتُ لَها : « وَأَنْتِ تَروقينَ لي أَيْضًا يالُورْنا . لَقَدْ أَحْبَبْتُكِ بِقَدْرِ ما أُحِبُّ أُخْتي آني ، وَأَكْثَرَ مِمّا أُحِبُّ أُخْتي ليزي . إِنَّني لَمْ أَرَ مِثْلَكِ مِنْ قَبْلُ . وَلَسَوْفَ أُحْضِرُ لَكِ مَعي بَعْضَ ٱلتُّفّاحِ وَكَلْبًا صَغيرًا ، عِنْدَما آتي ثانِيَةً إِلى هُنا . »

قالَتِ ٱلْفَتاةُ في سَذاجَةٍ : « آهٍ ، لَنْ يَسْمَحوا لي بِٱقْتِناءِ كَلْبٍ . لَيْسَ ثَمَّةَ كَلْبٌ واحِدٌ في هٰذا ٱلْوادي كُلِّهِ . »

قُلْتُ وَقَلْبي يَنْبِضُ بِعاطِفَةٍ جَيّاشَةٍ : « ضَعي يَدَكِ في يَدي . يالَكِ مِنْ مَخْلوقٍ صَغيرٍ بَريءٍ . »

عِنْدَئِذٍ تَناهَتْ إِلى آذانِنا صَيْحَةٌ عالِيَةٌ . وَسُرْعانَ ما شَحَبَ وَجْهُ ٱلْفَتاةِ وَصَرَخَتْ قائِلَةً : « آهٍ ، أَنْقِذْني ! »

رَدَدْتُ عَلى ٱلْفَوْرِ قائِلًا : « هَيّا نَهْبِطْ تِلْكَ ٱلصَّخْرَةَ ٱلَّتي يَسيلُ فَوْقَها ٱلْماءُ . »

قالَتْ : « كَلّا ! كَلّا ! سَوْفَ يَرَوْنَنا وَنَحْنُ نَعْبُرُ فَوْقَ ٱلْعُشْبِ . هَلْ تَرى تِلْكَ ٱلصَّخْرَةَ قُرْبَ ٱلشُّجَيْراتِ هُناكَ ؟ إِنَّها تُؤَدّي إِلى طَريقٍ يَحْمِلُكَ إِلى خارِجِ ٱلْوادي .. رُبَّما سَوْفَ يَقْتُلونَني إِذا ما عَرَفوا أَنَّني أَخْبَرْتُكَ بِهٰذا ٱلسِّرِّ . »

رَأَيْتُ حَوالَى ٱثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا قادِمينَ عَلى أَرْضِ ٱلْوادي . فَقَفَزْتُ بِسُرْعَةٍ إِلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ ، جاذِبًا إِيّاها وَرائي .

صاحَ ٱلرِّجالُ قائِلينَ : « أَيَّتُها ٱلْمَلِكَةُ ! أَيَّتُها ٱلْمَلِكَةُ ! أَيْنَ هِيَ ٱلْمَلِكَةُ ؟ »

قالَتْ لي لُورْنا : « إِنَّهُمْ يُنادونَني دائِمًا بِٱلْمَلِكَةِ . سَوْفَ أُصْبِحُ مَلِكَةً عَلى ٱلْوادي عِنْدَما أَكْبَرُ . »

هَمَسْتُ لَها : « سَوْفَ أَخْتَبِئُ أَنا في ٱلْماءِ ، أَمّا أَنْتِ فَتَمَدَّدي عَلى ٱلْعُشْبِ ٱلَّذي هُناكَ كَما لَوْ كُنْتِ نائِمَةً . »

جَرَتْ لُورْنا نَحْوَ صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ ، عَلى بُعْدِ ثَلاثينَ مِتْرًا ، وَرَقَدَتْ تَحْتَها . وَٱخْتَفَيْتُ أَنا داخِلَ ٱلْماءِ ٱلَّذي كانَتْ تَنْمو فيهِ ٱلْحَشائِشُ ٱلطَّويلَةُ . وَلَمْ يَبْدُ مِنْ جَسَدي وَسْطَ تِلْكَ ٱلْحَشائِشِ سِوى أَنْفي .

وَسُرْعانَ ما ٱقْتَرَبَ أَحَدُ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالِ ٱلْأَشِدّاءِ مِنَ ٱلْفَتاةِ ، وَتَوَقَّفَ مُتَطَلِّعًا إِلَيْها بُرْهَةً وَجيزَةً ، ثُمَّ حَمَلَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ وَهُوَ يَصيحُ : « ها هِيَ ذي مَلِكَتُنا . ها هِيَ ذي ٱبْنَةُ زَعيمِنا . »

وَضَعَها ٱلرَّجُلُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، ثُمَّ سارَ بِها في رَكْبِ ٱلرِّجالِ ٱلْآخَرينَ . عِنْدَئِذٍ خَرَجْتُ مِنَ ٱلْماءِ ، وَتَوَجَّهْتُ مُباشَرَةً إِلى ٱلْفَجْوَةِ ٱلَّتي أَشارَتْ لُورْنا إِلَيْها . وَما إِنْ دَخَلْتُها حَتّى وَجَدْتُ نَفْسي أَسيرُ في نَفَقٍ مُظْلِمٍ . وَفي نِهايَةِ هٰذا ٱلنَّفَقِ وَصَلْتُ إِلى حافَةِ ٱلْبِرْكَةِ .

الفَصْلُ ٱلسَّابِعُ

تُوم وَحِصانُهُ وَبِي

أَخَذْتُ أُفَكِّرُ كَثِيرًا في لُورْنا بَعْدَ زِيارَتي لِوادي آلِ دُون ، وَصِرْتُ أَحْلُمُ بِها كَثِيرًا ، كَما كُنْتُ أَتَقَدَّمُ في ٱلتَّدْرِيبِ عَلى ٱلرِّمايَةِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

كانَ لَدَيَّ في نَفْسِ ٱلْوَقْتِ أَعْمالٌ كَثِيرَةٌ : فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَحْصُدَ ٱلْقَمْحَ ، وَأَجْمَعَ ٱلتُّفّاحَ ، وَأَجْلُبَ ٱلْحَطَبَ ٱللّازِمَ لِنِيرانِ ٱلْمِدْفَأَةِ في ٱلشِّتاءِ . وَكَما هِيَ ٱلْعادَةُ ، فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ لا يَشْعُرُ بِمُرُورِ ٱلْوَقْتِ عِنْدَما يَكُونُ لَدَيْهِ أَعْمالٌ كَثِيرَةٌ .

اِنْقَضى عامٌ آخَرُ مِنْ عُمْري . وَسَقَطَ ٱلْمَطَرُ غَزِيرًا في شَهْرِ نُوفَمْبِر ، فَفاضَتْ مِياهُ ٱلنَّهْرِ . وَأَخَذَ ٱلْبَطُّ يَسْبَحُ نَشِيطًا في ٱلنَّهْرِ ، مُحْدِثًا جَلَبَةً عالِيَةً . وَذاتَ يَوْمٍ دَفَعَ ٱلْمَوْجُ بِإِحْدى ٱلْبَطّاتِ بَعِيدًا ، حَتّى بَلَغَتِ ٱلْجِسْرَ ، فَأَسْرَعْتُ مَعَ أُخْتي آني لِإِنْقاذِها .

ظَهَرَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ رَجُلٌ يَرْكَبُ حِصانًا رائِعًا . كانَ هُوَ تُوم فاجَّس ، قاطِعَ ٱلطَّرِيقِ .

صاحَ تُوم : « سَوْفَ أُنْقِذُ لَكُما ٱلْبَطَّةَ . » وَهَمَسَ بِشَيْءٍ في أُذُنِ ٱلْحِصانِ ٱلَّذي ٱنْدَفَعَ مُسْرِعًا وَسَطَ ٱلنَّهْرِ . وَعادَ تُوم بِٱلْبَطَّةِ حَيَّةً سَلِيمَةً . وَقُلْتُ في نَفْسي : « حَقًّا إِنَّهُ لَحِصانٌ رائِعٌ ، هٰذا ٱلَّذي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْهَمَ حَدِيثَ صاحِبِهِ ! » وَوَقَفْتُ مَعَ آني نَتَطَلَّعُ إِلى ٱلْحِصانِ .

سَأَلَني تُوم : « هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِإِمْكانِكَ أَنْ تَرْكَبَ حِصاني ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْكَبَ أَيَّ حِصانٍ . »

قالَ : « مِنْ حُسْنِ ٱلْحَظِّ أَنَّ ٱلْأَرْضَ رَخْوَةٌ في هٰذا ٱلْمَوْضِعِ ، وَلا تُهَدِّدُ بِإِصابَةٍ خَطِيرَةٍ إِذا ما وَقَعْتَ عَلَيْها . أَنا تُوم فاجَّس ٱبْنُ عَمِّكَ ، وَهٰذِهِ فَرَسي وِينِي . »

كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ وِينِي فَرَسٌ حَرُونٌ تَرْفُضُ أَنْ يَرْكَبَها أَحَدٌ غَيْرُ صاحِبِها تُوم . وَلٰكِنَّني قُلْتُ في إِصْرارٍ : « سَوْفَ أُحاوِلُ رُكُوبَها . » وَٱمْتَطَيْتُ صَهْوَةَ ٱلْفَرَسِ . وَما إِنْ أَطْلَقَ تُوم صَيْحَةً قَصِيرَةً مُمَيَّزَةً حَتّى [illegible]



ٱلفرسُ من سُرعتها . ولمَّا أطلق صيحةً أخرى ، حاولتْ أنْ تقذفَ بي بعيدًا عَنْ ظهرها ، غيْرَ أنّي تماسكْتُ وواصلْتُ ٱلسَّير . وأخذتْ وِي تقفزُ عاليًا وتبْذُلُ أقصى جهْدِها لِتطْرَحني أرضًا ، ولكنَّني استطعْتُ ٱلإمْساكَ بِزمامِها وَٱلِاستِمْرار في رُكوبها . عِنْدَئِذٍ أطْلَقَ تُوم صيْحةً أخرى ، فاستدارتِ ٱلفرسُ مُتَّجهةً نَحْوَهُ . وَما إنْ أتتْ إلى بوَّابةِ مزرعتِنا ، حتَّى ألْقتْ بي بعيدًا عَنْ ظَهْرِها .

قال تُوم : « لَقَدْ رَكِبْتَ وِي بِبَراعةٍ ، وَلَمْ أكُنْ أظُنُّ أنَّكَ سَتَسْتَطيعُ ٱلبَقاءَ طَويلًا هٰكَذا فَوْقَ ظَهْرِها . وَلِهٰذا فَسَوْفَ أُهْديكَ بُنْدُقيَّةً جَديدةً . »

انْصرَفَ ٱبْنُ عَمّي بَعْدَ أنْ أهْداني ٱلبُنْدُقيَّةَ ٱلحَديدةَ وَسَرْعانَ ما أخَذْتُ ٱلرِّمايةَ بِها ، كَما فَعَلْتُ بِسابِقَتِها .

وَمَرَّتْ سَبْعُ سَنَواتٍ ، كَبِرْتُ خِلالَها وَأصْبَحْتُ شابًّا .

الفصلُ ٱلثَّامِنُ

الخالُ رِيُوبِن

كانَ مِسْتَر رِيُوبِن هَكَّاباك ، مِنْ أهالي دَلْفِرْتُون ، خالًا لِأُمّي . وَكانَ يَمْتَلِكُ أكْبَرَ مَحَلٍّ لِبَيْعِ ٱلمَلابِسِ في تِلْكَ ٱلمَدينةِ . كانَتْ لَهُ حَفيدةٌ تُدْعى رُوث . وَكانَتْ أُمّي تَرْغَبُ في تَقْوِيةِ صِلاتِ ٱلوُدِّ مَعَهُ ، إذْ كانَتْ تَعْتَقِدُ أنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكُ لَنا ثَرْوَتَهُ ٱلكَبيرةَ بَعْدَ وَفاتِه .

كانَ ٱلخالُ رِيُوبِن يَحْضُرُ إلَيْنا كُلَّ عامٍ لِقَضاءِ عيدِ رَأْسِ ٱلسَّنةِ . وَكانَ يَرْحَلُ مِنْ بَلْدَتِه مُبَكِّرًا في ٱلصَّباحِ لِيَتَجَنَّبَ ٱلِالْتِقاءَ بِآلِ دُون على ٱلطَّريقِ ، إذْ كانَ هٰؤُلاءِ ٱلقَوْمُ مَشْهورينَ بِٱلكَسَلِ ، وَبِأنَّهُمْ يَسْتَيْقِظونَ مِنَ ٱلنَّوْمِ عِنْدَ ٱلظُّهْرِ ، وَلا يَخْرُجونَ لِلسَّطْوِ وَٱلنَّهْبِ إلّا في ٱلمَساءِ أوْ بَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ .

غَيْرَ أنَّ ٱلخالَ رِيُوبِن أخْطَأَ ٱلتَّقْديرَ في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ ، إذْ كانَ آلُ دُون قَدْ خَرَجوا مِنْ أوْكارِهِمْ مُبَكِّرينَ في ذٰلِكَ ٱلعيدِ . وَلَمْ يَكونوا يَوْمَئِذٍ راغِبينَ في ٱلسَّرِقةِ ، وَإنَّما كانوا يَقْصِدونَ ٱلمِزاحَ وَٱلمَرَحَ فَحَسْبُ .

جَلَسْنا في ٱنْتِظارِ ٱلخالِ بِٱلمَنْزِلِ ، إلى أنْ دَقَّتِ ٱلسّاعةُ ٱلواحِدةَ . وَكانَ ٱلضَّبابُ في ٱلخارِجِ كَثيفًا ، لا نَسْتَطيعُ ٱلرُّؤْيةَ خِلالَهُ عَلى بُعْدِ عَشَرةِ أقْدامٍ . وَطالَ بِنا ٱلِانْتِظارُ بَعْدَ ذٰلِكَ دونَ أنْ يَحْضُرَ . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِقَضاءِ أُمْسِيةٍ مُمْتِعةٍ .

اِشْتَدَّ قَلَقُ والِدَتي ، وَقالَتْ لي : « أخْشى أنْ يَكونَ ٱلخالُ قَدْ سَقَطَ في

قصة هؤلاء النّاس ، يا خوند » لم نكن ولدي نستطيع أن نلفظ كلمتي آب
دون ، فكانت تدعوهم دائمًا ـ « هؤلاء النّاس » وأجبتها مرحًا :
« سوف آسف حينئذٍ على حالِ هؤلاء النّاس ، إذ لا يلبثُ الخالُ أنْ يُنشئ
مَحلًّا تِجاريًّا إلى جانبِ النّهرِ ، يَبتلِعُ كُلَّ أموالِهِم . »

ضحكَتْ أُمّي لهذا الرّدّ . ولمّا نال منّا الجوعُ ، تناولنا طعام الغداء
وخرجتُ بعدهُ حامِلًا بُندقِيَّتي لِأبحثَ عنِ الخالِ ريوبن . كان منَ العسيرِ أنْ
أشُقَّ طريقي في الضّبابِ المُتكاثِف . وأخذتُ أُنادي اسْمَهُ بينَ الحينِ
والحينِ ، وأنا أفتّشُ بينَ الشُّجيراتِ المُتناثرةِ على طولِ الطّريق ، ولكنْ دون
جدوى . ولمّا أعياني البحثُ ، عزمْتُ على أنْ أستديرَ عائدًا إلى البيتِ عندَ
المُفترقِ التّالي للطُّرُق .

فجأةً سمِعتُ صوتًا آدميًّا صادرًا مِن عُمقِ الضّبابِ . وتوجّهتُ صوبَ
الصّوتِ فرأيتُ رجلًا مُقيّدًا مُستلقِيًا فوقَ حِصانٍ صغيرٍ . كانت قدَما الرّجل
فوقَ عُنُقِ الحِصانِ ، ورأسُهُ عِندَ ذيلِهِ . ويبدو أنَّ هذهِ الطّريقةَ الغريبةَ للرُّكوب
قد أفزعتِ الحِصانَ الصّغيرَ الّذي كان يقفِزُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليسارِ مُحاوِلًا
أنْ يطرَحَ الرّاكِبَ عَنْ ظَهْرِهِ . كانَ خالي ريوبن المِسكينُ هُوَ ذلكَ الرّاكِب
المُقيَّد ، وكانَ يُوشِكُ أنْ يموتَ مِنَ الرُّعْب .

تظاهرْتُ بادئَ الأمرِ بأنّي لا أعرِفُ الرّجُلَ ، وأمسكْتُ برأسِ الحِصانِ
قائلًا : « لا تخَفْ يا سيّدي ، فلَنْ يُصيبَكَ أذًى . »

صاحَ الخالُ : « النّجدة أيّها الصّديقُ الّذي لا أعرِفُهُ ! لقدْ أرسلَتْكَ السّماءُ



لإنقاذي مِنَ اللُّصوصِ الّذين سلبوني كُلَّ ما كُنتُ أحمِلُهُ . »

صِحْتُ مُتظاهِرًا بالدَّهشة : « عجبًا ! إنّكَ خالي ريوبن ! لماذا تركَبُ
الحِصانَ بهذهِ الصّورةِ الهزليّةِ ، وأنتَ أعظمُ رجلٍ في دلفرتون؟ ! »

لكنّهُ كانَ مِنَ الإعياءِ بحيثُ لمْ يستطِعْ أنْ يتكلّمَ كثيرًا . وأنزلتُهُ مِنْ فوقِ
ظهرِ الحِصانِ ، ووضعتُهُ على حِصاني ، وحملتُهُ إلى منزلي . وغلبهُ النُّعاسُ في
الطّريقِ فاستسلَمَ لِلنَّومِ إلى أنْ وصلْنا . وما إنْ دخلْنا البيتَ حتّى نفضَ الماءَ عنْ
ملابسِهِ ، ثُمَّ ذهبَ لينامَ مرّةً أخرى .

استيقظَ الخالُ ريوبن بعدَ فترةٍ مِنَ الوقتِ ، وأخذَ يُحدِّثُ نفسهُ قائلًا :
« لا بُدَّ أنْ يتزوّجَ جون رِد مِنْ روث ، وتؤولَ إليهِ كُلُّ ثروتي . لقدْ سلبَ

آل دُون الأوغادُ جُزءًا كبيرًا مِنْ هٰذِهِ الثَّروةِ ، بَيْدَ أَنَّ جُون يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ ما تَبَقّى مِنْها . »

اِسْتَأْنَفَ الخالُ نَوْمَهُ ثانِيةً إِلى أَنْ فَرَغْنا مِنْ إِعْدادِ طَعامِ العَشاءِ .

في المَساءِ زارَنا المُزارِعُ سنُو ، عُمْدةُ القَرْيةِ مَعَ بَناتِهِ الثَّلاثِ ، وَأَمْضَيْنا وَقْتًا مُمْتِعًا . غَيْرَ أَنَّ الخالَ رِيُوبن كانَ يَجْلِسُ طَوالَ المَساءِ في رُكْنٍ هادِئٍ دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كَثيرًا . وَعِنْدَما اقْتَرَبَتِ السَّهْرَةُ مِنْ نِهايَتِها تَطَرَّقَ الحَديثُ إِلى آلِ دُون ، فَقالَ الخالُ :

« إِنَّكُمْ جَميعًا جُبَناءُ ، أَيُّها الفَلّاحونَ ! إِنَّكُمْ جَميعًا جُبَناءُ ! لِماذا لا تَتَّحِدونَ مَعًا وَتَخوضونَ المَعْرَكَةَ ضِدَّ هٰؤُلاءِ الأَنْذالِ وَتَقْذِفونَ بِهِمْ إِلى خارِجِ المِنْطَقَةِ ؟ أَنْتُمْ تَنْعَمونَ بِالغِذاءِ الطَّيِّبِ ، وَتُجيدونَ الكَلامَ . وَلٰكِنْ عِنْدَما تُضْطَرّونَ إِلى القِتالِ ، فَإِنَّكُمْ تَتَراجَعونَ مَذْعورينَ . »

الفَصْلُ التّاسِعُ

زِيارةٌ لِقاضي الإِقْليم

في اليَوْمِ التّالي ، عَزَمَ الخالُ رِيُوبن عَلى زِيارةِ رَئيسِ القُضاةِ في هٰذا الجُزْءِ مِنَ المَمْلَكةِ ، وَاسْمُهُ لُورْد وِيشِيهالس .

اِسْتَقْبَلَنا اللُّورْدُ في وُدٍّ وَحَفاوةٍ ، وَضَحِكَ عِنْدَ سَماعِ قِصَّةِ الخالِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « وَلٰكِنْ لِماذا أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ آل دُون هُمُ الَّذينَ سَبَوا نُقودَكَ ؟ أَنْتَ تَقولُ إِنَّ ضَبابًا كَثيفًا كانَ يُخَيِّمُ عَلى المَكانِ ، فَهَلِ اسْتَطَعْتَ حينَئِذٍ أَنْ تَرى الرِّجالَ بِوُضوحٍ ؟ وَهَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُثْبِتَ مَنْ كانَ مِنْهُمْ هُناكَ ؟ »

عِنْدَما رَأى الخالُ أَنَّ القاضِيَ غَيْرُ مُتَحَمِّسٍ لِمُساعَدَتِهِ ، ثارَ قائِلًا : « هَلْ هٰذِهِ هِيَ عَدالةُ القَضاءِ الَّذي يَنْطِقُ بِاسْمِ جَلالةِ المَلِكِ ؟ سَوْفَ أَذْهَبُ بِنَفْسي إِلى لَنْدَن وَأُخْبِرُ المَلِكَ كَيْفَ يُسيئونَ إِلى عَدالةِ جَلالَتِهِ في إِقْليمِ سُومِرْسِت . »

أَجابَ لُورْد وِيشِيهالس : « أوه ! إِذًا فَقَدْ وَقَعَتْ هٰذِهِ الجَريمةُ في سُومِرْسِت وَلٰكِنّي أُحافِظُ عَلى الأَمْنِ في إِقْليمِ دِيفُونْشَير . عَلَيْكَ يا سَيِّدي بِالذَّهابِ إِلى القاضي في سُومِرْسِت . »

غادَرَ خالي رِيُوبن مَنْزِلَ القاضي في غَضَبٍ شَديدٍ ، قائِلًا إِنَّهُ سَوْفَ يَقْصِدُ رَجُلًا عَظيمًا في لَنْدَن هُوَ القاضي جِيفْريز . وَرَدَّدَ الخالُ : « وَالآنَ يا جُون

رد ، تَذَكَّرْ هٰذِهِ الكَلِماتِ الَّتي أقولُها . إنَّ الأمْرَ لَنْ يَنْتَهِيَ عِنْدَ هٰذا الحَدِّ ، إذْ لَدَيَّ خُطَّةٌ أُخْرى . إنَّني أعْرِفُ في لَنْدَن رَجُلًا أقْوى مِنَ المَلِكِ ذاتِهِ ، هُوَ القاضي جيفْريز . وَلَسَوْفَ أحْصُلُ عَلى خِطاباتِ تَوْصِيَةٍ إلى هٰذا الشَّخْصِ العَظيمِ . »

وفي طريقِنا إلى المَنْزِلِ ، رَأَيْنا بَعْضَ أزْهارِ الرَّبيعِ الجَميلةِ ، فقالَ الخالُ :
« إنَّها لَأزْهارٌ جَميلةٌ ! »

حَمَلَني مَرْأى تِلْكَ الأزْهارِ عَلى التَّفْكيرِ في لُورْنا دُون ، وَفي ذٰلِكَ اليَوْمِ البَعيدِ الَّذي قابَلْتُها فيهِ . تُرى هَلْ خَطَرْتُ بِبالِها مُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ ؟

في اليَوْمِ التّالي أعْرَبَ الخالُ عَنْ رَغْبَتِهِ في رُؤْيَةِ وادي آلِ دُون . وَقُلْتُ إنَّني أعْرِفُ الطَّريقَ إلَيْهِ ، فَسَألَني أنْ آخُذَهُ إلى هُناكَ . وَبَدَأْنا الرِّحْلَةَ دونَ أنْ نُخْبِرَ أحَدًا بِالجِهَةِ الَّتي نَقْصِدُها . وَعَبَرْنا غابَةَ باغورْذي بِبُطْءٍ عَلى جَوادَيْنا ، ثُمَّ صَعِدْنا التِّلالَ ، إلى جانِبِ الوادي الَّذي يَسْكُنُهُ آلُ دُون . كانَ هُناكَ تَلٌّ مُرْتَفِعٌ عِنْدَ أطْرافِ الغابَةِ ، وَكُنّا نَسْتَطيعُ أنْ نَرى وادِيَ آلِ دُون في وُضوحٍ تامٍّ أسْفَلَ هٰذا التَّلِّ .

وَصَلْنا أخيرًا إلى قِمَّةِ التَّلِّ ، وَنَظَرْنا مِنْ أطْرافِ الغابَةِ إلى الوادي الَّذي يَسْكُنُهُ آلُ دُون . وَتَطَلَّعَ الخالُ رِيُوبِن إلى التِّلالِ مِنْ حَوْلِهِ ، ثُمَّ قالَ : « مِنَ السَّهْلِ أنْ يَسْتَوْلِيَ نَفَرٌ قَليلٌ مِنَ الجُنودِ عَلى هٰذا الوادي ، إذا ما نَصَبوا مَدافِعَهُمْ عَلى قِمَمِ هٰذِهِ التِّلالِ . نَحْنُ لا نَحْتاجُ إلى أكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ مَدافِعَ في

أعْلى هٰذا التَّلِّ ، وَثَلاثَةٍ أُخْرى عَلى قِمَّةِ ذٰلِكَ الجَبَلِ ، حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنْ سَحْقِ هٰذِهِ العِصابَةِ . »

لَمْ أكُنْ حِينَئِذٍ أُنْصِتُ إلى ما يَقولُهُ الخالُ ، فَقَدْ كُنْتُ أنْظُرُ إلى تِلْكَ الفَجْوَةِ الصَّغيرةِ في الصَّخْرِ الَّتي سَبَقَ أنْ سِرْتُ خِلالَها يَوْمًا . وَبَيْنَما كُنْتُ أنْظُرُ إلى تِلْكَ الفَجْوَةِ رَأَيْتُ فَتاةً تَتَّجِهُ نَحْوَها وَتَمْضي إلى داخِلِها .. فَتاةً جَميلةً ، دَقيقةَ الجِسْمِ ، بَيْضاءَ اللَّوْنِ . كانَتْ هِيَ لُورْنا دُون . وَشَعَرْتُ بِقَلْبي يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ . وَعَرَفْتُ حِينَئِذٍ أنَّ حَياتي قَدِ ارْتَبَطَتْ بِها بِطَريقةٍ ما .

التَفَتَ الخالُ رِيُوبِن نَحْوي قائِلًا : « يَجِبُ أنْ تَزورَ هٰذا المَكانَ مَرَّةً أُخْرى . يَجِبُ أنْ تُراقِبَ وادِيَ آلِ دُون . »

أجَبْتُ ضاحِكًا : « أجَلْ ، سَوْفَ أفْعَلُ ذٰلِكَ بِالتَّأْكيدِ ... أعِدُكَ بِذٰلِكَ يا خالي . »

الفصلُ العاشرُ

زيارةٌ أُخرى لِلورْنا

بِمُجَرَّدِ أنْ عادَ الخالُ رِيُوبِن إلى بَيْتِه ، أَخذْتُ أُفكِّرُ في زيارةِ وادي آلِ دُون مَرَّةً أُخرى . وَاشْتَرَيْتُ بَعضَ المَلابِسِ الجديدةِ مِنْ بَلْدةِ بورْلوك ، ثُمَّ بَدَأْتُ الرِّحْلةَ إلى صَخْرةِ الشَّلَّالِ الَّتي كُنْتُ قَدْ تَسَلَّقْتُها مُنْذُ سَنَواتٍ . وَلَقَدْ دَهِشْتُ عِنْدما بَدَتْ لِي الصَّخْرةُ حِينَئِذٍ أَصْغَرَ جِدًّا في الحَجْمِ وَخاصَّةً بَعْدَ أنْ كَبِرْتُ أنا كَثيرًا . وَتَسَلَّقْتُها في سُهولةٍ وَيُسْرٍ ، وَسُرْعانَ ما وَصَلْتُ إلى القِمَّةِ . وَتَلَفَّتُّ حَوْلي بِحِرْصٍ وَحَذَرٍ قَبْلَ أنْ أَخْطُوَ فَوْقَ الأَرْضِ الكَثيرةِ العُشْبِ إلى جانِبِ النَّهْرِ . كانَتِ الأَشْجارُ حِينَئِذٍ قَدْ بَدَأَتْ تَكْشِفُ عَنْ أَوْراقِها الصَّغيرةِ اليانِعةِ ، الَّتي تَبْدو خَضْراءَ زاهِيةً في ضَوْءِ الشَّمْسِ . وَكانَتِ السَّماءُ الصّافِيةُ شَديدةَ الزُّرْقةِ ، عَلى حِينِ أَخذَتْ بَراعِمُ الزَّهْرِ تَتَفَتَّحُ ، وَالطُّيورُ تُغَنِّي أَغاريدَ الحُبِّ وَالغَزَلِ .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِ الطَّبيعةِ وَأَصْواتِها السّاحِرةِ ، سَمِعْتُ صَوْتًا أَجْمَلَ مِنْ صَوْتِ أَيِّ طائِرٍ . كانَ هُوَ صَوْتَ لُورْنا دُون . وَاخْتَبَأْتُ خَلْفَ الصُّخورِ حَتَّى لا تَراني الشّادِيةُ الفاتِنةُ فَتَخافَ وَتَفِرَّ هارِبةً . وَما هِيَ إلَّا دَقائِقُ مَعْدودةٌ حَتَّى أَخْرَجْتُ رَأْسي مِنْ وَراءِ الصَّخْرةِ فَرَأَيْتُ مَنْظَرًا فَريدًا لا تَزالُ ذِكْراهُ حَيَّةً في خاطِري إلى اليَوْمِ .

كانَتْ لُورْنا دُون قادِمةً نَحْوي عَلى الطَّريقِ الَّذي إلى جانِبِ النَّهْرِ . لَمْ

أَسْتَطِعْ أنْ أَرى وَجْهَها تَمامًا ، وَإنَّما لَمَحْتُ شَعْرَها الأَسْوَدَ الرّائِعَ الجَمالِ يُحيطُ بِهِ إكْليلٌ مِنَ الأَزْهارِ البَيْضاءِ . وَكانَ الضَّوْءُ الشّاحِبُ فَوْقَ التِّلالِ الغَرْبِيَّةِ يُلْقي بِظِلٍّ خَلْفَها ، كَما لَوْ كانَتِ الشَّمْسُ الغارِبةُ تَتَباطَأُ في الرَّحيلِ لِتَتَزَوَّدَ مِنْها بِنَظْرةٍ أَخيرةٍ . وَالآنَ ، وَبَعْدَ أنْ تَقَدَّمْتُ في العُمْرِ ، ما زالَ مَشْهَدُ الشَّمْسِ عِنْدَ الغُروبِ يُذَكِّرُني بِلُورْنا دُون في ذٰلِكَ اليَوْمِ المَشْهودِ .

خَرَجْتُ مِنْ خَلْفِ الصُّخورِ ، فَلَمّا رَأَتْني اسْتَدارَتْ كَما لَوْ كانَتْ تَتَهَيَّأُ لِلْهَرَبِ ، إذْ يَبْدو أَنَّها ارْتاعَتْ مِنْ ضَخامةِ جِسْمي . وَسَقَطْتُ عَلى العُشْبِ ، كَما سَقَطْتُ أَمامَها مُنْذُ سَبْعِ سَنَواتٍ مَضَتْ ، عِنْدَما صَعِدْتُ إلى قِمَّةِ الشَّلَّالِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَصِحْتُ قائِلًا : « لُورْنا دُون ! » وَأَدْرَكْتُ مِنْ ضَحْكَتِها الرَّقيقةِ أَنَّها قَدْ عَرَفَتْني ، وَأَنَّها سُرَّتْ بِرُؤْيَتي . غَيْرَ أَنَّها تَظاهَرَتْ بِالغَضَبِ وَصاحَتْ قائِلةً : « يا لَلْعَجَبِ ! وَمَنْ تَكونُ يا سَيِّدي ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتَ اسْمي ؟ »

أَجَبْتُها . « أَنا جون رِد ، ذٰلِكَ الغُلامُ الصَّغيرُ الَّذي أَعْطاكِ بَعْضَ السَّمَكِ مُنْذُ سَبْعِ سَنَواتٍ . »

قالَتْ : « أَجَلْ ، أَذْكُرُ ذٰلِكَ الغُلامَ الصَّغيرَ الَّذي كانَ مُرْتَعِبًا جِدًّا يَوْمَئِذٍ ، وَالَّذي اخْتَبَأَ هُنا في الماءِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّكَ قَدْ نَسيتَ أَنَّ هٰذا المَكانَ بالِغُ الخُطورةِ . »

لاحَظْتُ خَوْفَها . فَقَدْ كانَتْ تَخْشى أنْ يَراني أَحَدُ أَفْرادِ عائِلَتِها فَيُطْلِق



ٱلنَّارَ عَلَيَّ فِي ٱلحالِ . وَكانَتْ عَيْناها ٱللَّامِعَتانِ ٱلسّاحِرَتانِ مُتَّجِهَتَيْنِ نَحْوي طَوالَ ٱلوَقْتِ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ . وَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلرَّدِّ عَلَيْها . كُنْتُ أُحِسُّ أَنَّني

سَوْفَ أُحِبُّها إِلى ٱلأَبَدِ ، وَلٰكِنِّي أَشْعُرُ أَنَّني لَسْتُ جَديرًا بِها . وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ أُغادِرَ ٱلمَكانَ في ٱلحالِ ، فَقُلْتُ :

« سَوْفَ أَمْضي يا آنِسةُ لورْنا ، لِأَنَّني أَرى أَنَّكِ خائِفَةٌ ، وَأَعْرِفُ مِقْدارَ ٱلأَلَمِ ٱلَّذي قَدْ يُصيبُكِ إِذا ما أَتى واحِدٌ مِنْهُمْ وَقَتَلَني ٱلآنَ ، كَما أَعْرِفُ أَنَّ أُمّي سَوْفَ تَموتُ حُزْنًا إِذا ما وَقَعَ ذٰلِكَ . وَلٰكِنْ حاوِلي أَنْ تَذْكُريني بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلآخَرِ ، وَأَعِدُكِ بِأَنَّني سَوْفَ آتي ثانِيَةً ، وَأُحْضِرُ لَكِ هَدِيَّةً مِنَ ٱلبَيْضِ ٱلطّازَجِ . »

أَجابَتْ : « أَشْكُرُكَ كَثيرًا ، وَلٰكِنْ يَجِبُ أَلَّا تَبْحَثَ عَنّي عِنْدَما تَأْتي يَكْفي أَنْ تَتْرُكَ ٱلبَيْضَ في ٱلمَخْبَإِ ٱلصَّغيرِ ٱلَّذي عَمِلْتَهُ بَيْنَ ٱلصُّخورِ . »

عِنْدَ ٱلوَداعِ ٱبْتَسَمَتْ لِيَ ٱبْتِسامَةً رَقيقَةً مُشْرِقَةً نَفَذَتْ إِلى أَعْماقِ قَلْبي وَمَدَّتْ لي يَدَها فَلَمَسْتُها بِرِقَّةٍ ، ثُمَّ مَضَيْتُ أَهْبِطُ ٱلصَّخْرَةَ .

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا طَوالَ ٱلأُسْبوعِ ٱلتّالي سِوى أَنْ أَحْلُمَ وَأَحْلُمَ بِلورْنا . لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُرَكِّزَ في أَيِّ عَمَلٍ مُدَّةً طَويلَةً ، وَظَنَّ ٱلجَميعُ أَنَّني مَريضٌ . وَقالَ خادِمُنا جون فراي لِلنّاسِ إِنَّ كَلْبًا مَسْعورًا قَدْ عَضَّني ، وَكادَتْ أُمّي أَنْ تُصَدِّقَ هٰذا ٱلنَّبَأَ . وَفي ٱلمَساءِ كانَتْ أُمّي تَجْلِسُ إِلى جانِبي وَتُوَجِّهُ إِلَيَّ أَسْئِلَةً كَثيرَةً ، وَكُنْتُ زاهِدًا في ٱلإِجابَةِ عَنْ أَيِّ سُؤالٍ . كُنْتُ أُريدُ فَحَسْبُ أَنْ أَجْلِسَ إِلى جِوارِ ٱلمِدْفَأَةِ وَأُفَكِّرَ في لورْنا دون .

الفَصْلُ ٱلحادِيَ عَشَرَ

قِصَّةُ لُورْنا

ما إنْ مَرَّ أُسْبوعانِ حَتَّى مالَ ٱلجَوُّ إلى ٱلدِّفْءِ ، وَحَلَّ ٱلرَّبيعُ بِكُلِّ سِحْرِهِ وَجَمالِهِ ، وَٱخْضَرَّتِ ٱلحُقولُ ، وَٱكْتَسَتْ جَوانِبُ ٱلتِّلالِ بِأَزْهارٍ زاهِيَةٍ جَميلَةٍ .

ذَهَبْتُ ذاتَ يَوْمٍ إلى شَجَرَةٍ عَتيقَةٍ ، وَحَفَرْتُ عَلى جِذْعِها هٰذَيْنِ ٱلحَرْفَيْنِ : ل . د . وَبَيْنَما كُنْتُ أَفْعَلُ ذٰلِكَ ، تَمَلَّكَتْني رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ في أَنْ أَرَى لُورْنا مَرَّةً أُخْرَى ، فَتَوَجَّهْتُ في هُدوءٍ إلى ٱلبَيْتِ ، وَأَخْرَجْتُ مَلابِسي ٱلجَديدَةَ . وَحَرَصْتُ أَلّا تَراني شَقيقَتايَ خارِجًا في هٰذِهِ ٱلمَلابِسِ ، فَذَهَبْتُ لِأَرْتَدِيَها وَراءَ بَعْضِ ٱلشُّجَيْراتِ خَلْفَ ٱلمَنْزِلِ . وَخَرَجْتُ قاصِدًا غابَةَ باغوُرْذي وَصَعِدْتُ ٱلنَّهْرَ إلى أَنْ بَلَغْتُ صَخْرَةَ ٱلشَّلّالِ ، ثُمَّ تَسَلَّقْتُ ٱلصَّخْرَةَ بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ ، إذْ كانَتِ ٱلمِياهُ تَتَدَفَّقُ عَلَيْها بِشِدَّةٍ . وَما إنْ جَلَسْتُ عَلى ٱلقِمَّةِ لِأَسْتَريحَ تَحْتَ ظِلالِ ٱلأَشْجارِ حَتَّى رُحْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ .

ٱسْتَيْقَظْتُ عَلى صَوْتِ خَريرِ ٱلمِياهِ ٱلجارِيَةِ في نُهَيْرٍ صَغيرٍ إلى جانِبي ، فَرَأَيْتُ لُورْنا واقِفَةً أَمامي تَحْجُبُ عَنّي أَشِعَّةَ ٱلشَّمْسِ . وَسُرْعانَ ما تَناوَلَتْ يَدي لِتُساعِدَني عَلى ٱلنُّهوضِ قائِلَةً : « هَلْ جُنِنْتَ يا سَيِّدُ رِد ؟ »

أَجَبْتُ : « لَسْتُ مَجْنونًا ، وَإِنَّما أَنا نِصْفُ نائِمٍ . »

قالَتْ : « إذًا ، هَيّا نَبْتَعِدُ عَنْ هٰذا ٱلمَكانِ حِفاظًا عَلى حَياتِكَ . فَسَوْفَ يَأْتي ٱلحُرّاسُ إلى هُنا حالًا . أَسْرِعْ يا سَيِّدُ رِد وَدَعْني أَلْتَمِسُ لَكَ مَخْبَأً »

قُلْتُ : « لَنْ أَتَحَرَّكَ خُطْوَةً واحِدَةً مِنْ هُنا إلّا إذا دَعَوْتِني بِٱسْمي ٱلأَوَّلِ : جُون . »

فَقالَتْ : « حَسَنًا ، إذًا أَسْرِعْ يا سَيِّدُ جُون رِد إذا كُنْتَ تُريدُ ٱلإِبْقاءَ عَلى حَياتِكَ . » وَقادَتْني ، دُونَ كَلِمَةٍ أُخْرى ، إلى مَخْبَئِها بَيْنَ ٱلصُّخورِ . وَرَأَيْتُ ثانِيَةً تِلْكَ ٱلفَجْوَةَ ٱلَّتي سَلَكْتُها مُنْذُ سَنَواتٍ . كانَتْ هُناكَ بِضْعُ دَرَجاتٍ حَجَرِيَّةٍ مَنْحوتَةٍ في ٱلصَّخْرِ ، وَإلى جانِبِها بَعْضُ ٱلشُّجَيْراتِ ٱلقَصيرَةِ ٱلسَّميكَةِ . وَأَزاحَتْ لُورْنا ٱلشُّجَيْراتِ جانِبًا ، كاشِفَةً عَنْ طَريقٍ صَغيرٍ يَمُرُّ خِلالَ ٱلصَّخْرِ .

تَبِعْتُها في جَهْدٍ شَديدٍ بِسَبَبِ ضَخامَةِ جِسْمي ٱلَّتي لَمْ تَكُنْ تُناسِبُ ضيقَ ٱلمَكانِ . وَضَحِكَتْ لُورْنا عِنْدَما رَأَتِ ٱلمُحاوَلاتِ ٱلَّتي بَذَلْتُها لِكَيْلا تَصْطَدِمَ رُكْبَتايَ وَذِراعايَ كَثيرًا بِٱلصَّخْرِ ، فَغَضِبْتُ لِذٰلِكَ . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ أَتَيْنا إلى فُسْحَةٍ صَغيرَةٍ بَديعَةٍ تُظَلِّلُها ٱلسَّماءُ ٱلزَّرْقاءُ ، وَتَحُفُّ بِجَوانِبِها ٱلصُّخورُ ٱلعالِيَةُ . وَكُنْتُ مُسْتَغْرِقًا في ٱلتَّمَتُّعِ بِجَمالِ تِلْكَ ٱلفُسْحَةِ ، حينَ فاجَأَتْني لُورْنا بِٱلسُّؤالِ ضاحِكَةً :

« أَيْنَ ٱلبَيْضُ ٱلطّازَجُ يا سَيِّدُ رِد ؟ أَمْ أَنَّ ٱلدَّجاجَةَ ٱلزَّرْقاءَ لَمْ تَعُدْ تَبيضُ ؟ »

لَقَدْ ظَنَّتْ لُورْنا أَنّي نَسيتُ ذٰلِكَ ٱلأَمْرَ ، غَيْرَ أَنّي كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِٱلبَيْضِ في قُبَّعَتي ، وَقَدَّمْتُهُ إلَيْها قائِلًا : « كانَ في إمْكاني أَنْ أُحْضِرَ لَكِ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ، وَلٰكِنَّني خَشيتُ أَنْ يَتَكَسَّرَ في ٱلطَّريقِ . »

ما إنْ رَأَتْ لُورْنا ٱلبَيْضَ حَتَّى أَجْهَشَتْ بِٱلبُكاءِ . وَخَشيتُ أَنْ أَكونَ قَدْ جَرَحْتُ شُعورَها بِكَلِمَةٍ غَيْرِ مَقْصودَةٍ ، وَلٰكِنَّها قالَتْ مُوَضِّحَةً سَبَبَ

بُكائِها : « لَمْ يَسْبِقْ أَنْ عامَلَني أَحَدٌ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلرِّقَّةِ . إِذْ لا يَعْرِفُ ٱلرِّقَّةَ أَحَدٌ في هٰذا ٱلْمَكانِ . »

جَلَسْنا فَوْقَ صَخْرَةٍ ، وَأَخَذَتْ لورْنا تُحَدِّثُني عَمّا كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَهُ عَنْ حَياتِها . وَبَدَأَتْ حَديثَها قائِلَةً :

« هُناكَ شَخْصانِ فَقَطْ في هٰذا ٱلْوادي كَثيرًا ما يُساعِدانِني أَوْ يُجيبانِ عَنْ أَسْئِلَتي : أَحَدُهُما جَدّي سير إِنْسُور دُون ، وَٱلثّاني حَكيمُ ٱلْأُسْرَةِ أَوْ مُسْتَشارُها ٱلَّذي يُقَدِّمُ لِأَفْرادِها ٱلْمَشورَةَ في ٱلْمَواقِفِ ٱلَّتي تَسْتَدْعي ذٰلِكَ . وَجَدّي رَجُلٌ عَجوزٌ شَديدُ ٱلاعْتِزازِ بِنَفْسِهِ ، يَعْرِفُ الخَطَأَ مِنَ ٱلصَّوابِ ، وَلٰكِنَّهُ لا يُحِبُّ إِطالَةَ ٱلنَّظَرِ في ٱلتَّحْديدِ بَيْنَهُما . أَمّا ٱلْمُسْتَشارُ فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ كَثيرًا ، لِأَنَّهُ مُغْرَمٌ بِٱلْقَوْلِ دونَ ٱلْفِعْلِ .

« وَمُنْذُ أَنْ ماتَتْ عَمَّتي سابينا لا أَجِدُ أَحَدًا أَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ . إِنَّنا نَمْتَلِكُ واديًا رائِعًا ، وَأَنا أُحِبُّ ٱلْأَمْنَ وَٱلسَّلامَ ، كَما أُحِبُّ ٱلْهُدوءَ وَٱلْقِراءَةَ ، وَلٰكِنَّ كُلَّ ما يَدورُ حَوْلي هُنا هُوَ ٱلْقَتْلُ وَٱلنَّهْبُ وَٱلْكَلامُ ٱلْخَشِنُ ٱلْبَذيءُ . وَكَثيرًا ما يَدْعونَني هُنا بِٱلْمَلِكَةِ وَيَزْعُمونَ أَنّي سَأَكونُ مَلِكَةً عَلى هٰذا ٱلْوادي . غَيْرَ أَنَّني لا أَشْعُرُ بِٱلانْتِماءِ إِلَيْهِمْ ، وَأَمْقُتُ مَسْلَكَهُمْ في ٱلْحَياةِ . وَهُناكَ شَخْصٌ يُريدُ أَنْ يَتَزَوَّجَني ، وَهُوَ كارْفَر ، ٱبْنُ ٱلْمُسْتَشارِ . إِنَّهُ أَقْوى وَأَشْجَعُ ٱلرِّجالِ في آلِ دُون ، وَلٰكِنَّهُ أَخْشَنُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ وَحْشِيَّةً . وَأَنا لا أُحِبُّهُ ، وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُجْبِرُني عَلى ٱلزَّواجِ بِهِ . وَكَثيرًا ما يَأْتي وَيُقَدِّمُ إِلَيَّ جَواهِرَ وَحُلِيًّا سَرَقَها مِنَ ٱلْآخَرينَ . »

أَدْرَكْتُ مِنَ ٱلنَّظْرَةِ ٱلَّتي ٱرْتَسَمَتْ حينَئِذٍ عَلى وَجْهي أَنَّني قَدْ سَمِعْتُ

بِكارْفَر مِنْ قَبْلُ ، إِذْ ما إِنْ طَرَقَ ٱسْمُهُ مَسْمَعي ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ يُجْبِرُ لورْنا عَلى ٱلزَّواجِ بِهِ ، حَتّى ثارَتْ ثائِرَتي ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّني أَحْضَرْتُ بُنْدُقِيَّتي لِأَقْتُلَهُ في ٱلْحالِ .

ٱسْتَأْنَفَتْ لورْنا ٱلْحَديثَ : « كانَتِ ٱلْعَمَّةُ سابينا تُؤْنِسُ وَحْشَتي ، لٰكِنَّها ماتَتْ . وَكانَتْ أُمًّا رَؤومًا لي ، وَهِيَ ٱلَّتي عَلَّمَتْني كُلَّ ما أَعْرِفُهُ ٱلْآنَ مِنْ أَشْياءَ طَيِّبَةٍ في ٱلْحَياةِ . لَقَدْ ماتَتْ مُنْذُ عامٍ ، وَمُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْحينِ ، لا أَجِدُ مَنْ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ سِوى خادِمَتي ٱلصَّغيرَةِ : جُويني كارْفاكْس وَهِيَ فَتاةٌ صَغيرَةٌ وَجَدْناها بَيْنَ ٱلتِّلالِ وَكادَتْ أَنْ تَموتَ لَوْ لَمْ نُدْرِكْها . وَكانَ أَبوها قَدْ وَلّى هارِبًا ذاتَ يَوْمٍ ، وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْحينِ . وَهِيَ قَبيحَةُ ٱلشَّكْلِ جِدًّا ، وَلا أَحَدَ مِنَ ٱلرِّجالِ يُحِبُّ ٱلنَّظَرَ إِلَيْها . وَهِيَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَجولَ في أَيِّ مَكانٍ دونَ أَنْ يَمْنَعَها ٱلْحُرّاسُ .

« وَذاتَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ يولْيَه ٱلْماضي وَقَعَ لي حادِثٌ رَهيبٌ ، وَكُلَّما تَذَكَّرْتُهُ شَعَرْتُ بِٱلْفَزَعِ . كُنْتُ في طَريقي إِلى ٱلْبَيْتِ ، عائِدَةً مِنْ هٰذا ٱلْمَكانِ ، عِنْدَما خَرَجَ شابٌّ بَغْتَةً مِنْ خَلْفِ ٱلْأَشْجارِ . وَكانَ يَبْدو أَنيقًا في رِدائِهِ ٱلْحَريرِيِّ ذي ٱللَّوْنَيْنِ ٱلْأَحْمَرِ وَٱلْأَخْضَرِ ، وَكانَ يَحْمِلُ في يَدِهِ سَيْفًا صَغيرًا . وَبادَرَني قائِلًا : ‹ أَنا ٱللّوردُ أَلان براندير ، ٱبْنُ خالِكِ ، وَقَدْ عَيَّنَتْني ٱلْحُكومَةُ وَصِيًّا عَلَيْكِ إِلى أَنْ تَبْلُغي ٱلْحادِيَةَ وَٱلْعِشْرينَ مِنَ ٱلْعُمْرِ . وَسَوْفَ أَقومُ مِنَ ٱلْآنَ بِتَدْبيرِ شُؤونِكِ . ›

« أَجَبْتُ بِدَهْشَةٍ : ‹ أَنْتَ وَصِيٌّ عَلَيَّ ! › ثُمَّ أَضَفْتُ ضاحِكَةً : ‹ وَلٰكِنْ كَيْفَ ، وَعُمْرُكَ قَريبٌ مِنْ عُمْري ! › فَأَجابَني قائِلًا : ‹ لَعَلَّكِ عَلى حَقٍّ .



إنّي أقْوَى وَأكْبَرُ سِنًّا مِمّا أندو . وَلَوْ هاجَمَني أشَدُّ الرِّجالِ في آلِ دُون لَشَطَرْتُهُ نِصْفَيْنِ !)

« قُلْتُ عَلى الفَوْرِ : (اِخْفِضْ صَوْتَكَ ، فَقَدْ يَسْمَعُكَ واحِدٌ مِنْهُمْ . يَجِبُ أنْ تَذْهَبَ الآنَ !) وَكانَ الظَّلامُ قَدْ تَسَلَّلَ إلى المَكانِ ، وَكانَ الجَوُّ يُنْذِرُ بِعاصِفَةٍ شَديدَةٍ . وَما لَبِثَ الشّابُّ أنْ قالَ : (يا ابْنَةَ عَمَّتي العَزيزَةَ ، أعْطيني زَهْرَةً واحِدَةً كَيْ أتَذَكَّرَكِ وَسَوْفَ أعودُ في القَريبِ العاجِلِ .)

« فَجْأةً هَبَطَ عَلَيْنا كارْفَر دُون صائِحًا : (هٰذا ما لَنْ تَفْعَلَهُ أبَدًا !)

« وَأخَذَ آلان بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَرَفَعَهُ إلى أعْلى كَما يَرْفَعُ طِفْلًا صَغيرًا ، ثُمَّ اخْتَفَى بِهِ في جَوْفِ الظَّلامِ . وَسَمِعْتُ صَوْتَ ارْتِطامِ جِسْمٍ ثَقيلٍ بِالأرْضِ ، وَلَمْ أسْمَعْ صَرْخَةً ، غَيْرَ أنّي عَرَفْتُ ما حَدَثَ : فَقَدْ لَقِيَ الفَتَى المِسْكينُ مَصْرَعَهُ بِيَدِ كارْفَر ! وَمُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ وَأنا أشْعُرُ بِالأسَى وَالوَحْشَةِ . إنَّ هٰذا الوادِيَ يَخْلو مِنَ البَهْجَةِ ، وَلا تَجِدُ فيهِ سِوَى الخَوْفِ وَالتَّعاسَةِ . »

كانَ اللَّيْلُ قَدْ حَلَّ عِنْدَما أنْهَتْ لورْنا قِصَّتَها ، فَقالَتْ خائِفَةً : « سَوْفَ يَأتي آل دُون . يَجِبُ أنْ تَذْهَبَ الآنَ ، وَلا تَعُدْ قَبْلَ انْقِضاءِ شَهْرٍ . انْتَظِرْ شَهْرًا ، ثُمَّ عُدْ . »

قُلْتُ لَها : « وَلٰكِنْ رُبَّما احْتَجْتِ إلَيَّ قَبْلَ انْقِضاءِ هٰذا الوَقْتِ . »

أشارَتْ إلى حَجَرٍ أبْيَضَ كَبيرٍ قائِلَةً : « يُمْكِنُكَ أنْ تَرى ذٰلِكَ الحَجَرَ بِوُضوحٍ مِنَ التَّلِّ المُقابِلِ . وَسَوْفَ أضَعُ عَلَيْهِ قِطْعَةً مِنَ القُماشِ الأسْوَدِ إذا احْتَجْتُ إلَيْكَ »

وَسارَتْ مُسْرِعَةً بَيْنَ الأشْجارِ ، وَهَبَطْتُ الصَّخْرَةَ عائِدًا إلى مَنْزِلي .

الفَصلُ الثّاني عَشَرَ

جيريمي ستِكلِز

اِقتَرَبَ شَهرُ الانتِظارِ مِن نِهايَتِهِ . وَكُنتُ أَذهَبُ كُلَّ يَومٍ لِأَرى الحَجَرَ الأَبيَضَ ، وَأَنا دائِمُ التَّفكيرِ في لُورنا دُون . وَكانَ يُؤَرِّقُني الخَوفُ مِن أَن يَفوزَ بِها دُوني أَحَدُ الشُّبّانِ النُّبَلاءِ مِن ذَوي الأَصلِ العَريقِ .

في عَصرِ أَحَدِ الأَيّامِ ، وَبَعدَ أَن فَرَغتُ مِن إِطعامِ الخَيلِ ، رَأَيتُ وَأَنا عائِدٌ إِلى المَنزِلِ رَجُلًا قادِمًا عَلى ظَهرِ جَوادِهِ مِن ناحيَةِ النَّهرِ . وَظَنَنتُهُ أَحَدَ المُسافِرينَ ، وَلٰكِنَّهُ تَوَقَّفَ عِندَ بَوّابَةِ مَنزِلِنا ، وَلَوَّحَ بِشَيءٍ ما في يَدِهِ صائِحًا : « باسمِ المَلِكِ ! » وَما إِن رَآني حَتّى صاحَ ثانيَةً : « تَعالَ يا فَتى ! » وَسِرتُ نَحوَهُ في بُطءٍ ، إِذ كُنتُ لا أُحِبُّ أَن أُسرِعَ إِلى أَيِّ فَردٍ .

سَأَلَني الرَّجُلُ : « هَل هٰذِهِ مَزرَعَةُ رِد ؟ »

أَجَبتُهُ : « أَجَل ، يا سَيِّدي . إِنَّها مَزرَعَةُ رِد . تَفَضَّل بِالدُّخولِ لِنُقَدِّمَ لَكَ الطَّعامَ . »

كانَ الرَّجُلُ في حَوالَى الأَربَعينَ مِن عُمرِهِ ، وَتَبدو عَلى وَجهِهِ سِماتُ الصَّرامَةِ ، وَلَهُ عَينانِ صَغيرَتانِ سَريعَتا الحَرَكَةِ .

صِحتُ مُناديًا آني لِتُعِدَّ لِلرَّجُلِ شَيئًا مِنَ اللَّحمِ يَتَناوَلُهُ عَلى الغَداءِ .

قالَ الرَّجُلُ : « نَعَم ، أَنا جائِعٌ ، غَيرَ أَنّي لَن أَتَناوَلَ أَيَّ طَعامٍ أَو شَرابٍ قَبلَ أَن أَرى جُون رِد بِعَينَي رَأسي . »



أجَبْتُ : « لَقَدْ رَأيْتَهُ لِلتَّوّ . أنا جُون رِد . »

قالَ الرَّجُلُ : « وَأنا جيريمي ستِكِلز ، خادِمُ المَلِكِ . بِاسْمِ المَلِكِ ، أُعْطيكَ هٰذا الأمْرَ . »ناوَلَني الرَّجُلُ خِطابًا يَأْمُرُني بِالتَّوَجُّهِ إلى لَنْدن لِلْإدْلاءِ لِقُضاةِ المَلِكِ بِكُلِّ ما أعْرِفُ عَنْ آلِ دُون ، وَعَنْ أفْعالِهِمِ المُخالِفةِ لِلقانونِ .

انْتَظَرْتُ خَمْسةَ أيّامٍ عَلى أمَلِ أنْ أرَى الإشارةَ المُتَّفَقَ عَلَيْها مَعَ لُورْنا دُون ولَمّا لَمْ أرَ تِلْكَ الإشارةَ ، بَدَأْتُ الرِّحْلةَ إلى لَنْدن مَعَ جيريمي ستِكِلز .

الفَصْلُ الثّالِثَ عَشَرَ

زِيارَتي لِلَنْدن

كانَتِ الرِّحْلةُ إلى لَنْدن في تِلْكَ الأيّامِ طَويلةً وَمَحْفوفةً بِالمَخاطِرِ .

وَصَلْنا إلى بُورْلُوك في مَوْعِدِ الغَداءِ . وَقَضَيْنا اللَّيْلَ مَعَ أحَدِ أقارِبِ أُمّي في بَلْدةِ دَبِسْتَر ، ثُمَّ تَوَجَّهْنا إلى بردخُوتَر . وَهٰكَذا واصَلْنا السَّفَرَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ إلى أنْ وَصَلْنا إلى مَدينةِ لَنْدن .

لَمْ تَجْذِبْني لَنْدن ، وَلَمْ يُعْجِبْني فيها سِوى نَهْرِ التّيمز ، أمّا الشَّوارِعُ فَقَدْ كانَتْ قَذِرةً ، صاخِبةً تَعِجُّ بِالنّاسِ .

مَكَثْتُ في لَنْدن شَهْرَيْنِ حَتّى كادَتْ نُقودي أنْ تَنْفَد . وَذَهَبْتُ إلى المَحاكِمِ عِدَّةَ مَرّاتٍ دُونَ أنْ أتَمَكَّنَ مِنَ الإدْلاءِ بِأقْوالي أمامَ القاضي ، وَدُونَ أنْ أجِدَ أحَدًا يُرْشِدُني إلى ما يَجِبُ أنْ أفْعَلَهُ .

بَيْنَما كُنْتُ جالِسًا في قاعةِ المَحْكَمةِ ذاتَ يَوْمٍ ، جاءَني رَجُلٌ وَقادَني إلى مَكانٍ هادِئٍ حَيْثُ بادَرَني بِالحَديثِ قائِلًا : « حَسَنًا يا جُون ، كَيْفَ حالُ أُمِّكَ العَزيزةِ ؟ »

أجَبْتُهُ : « لَمْ أرَها مُنْذُ شَهْرَيْنِ . » وَتَظاهَرَ الرَّجُلُ بِأنَّهُ يَعْرِفُ أُسْرَتي حَقَّ المَعْرِفةِ ، فَأنِسْتُ إلَيْهِ ، وَأطْلَعْتُهُ عَلى ما أُلاقي في المَدينةِ الكَبيرةِ ، مِنْ صُعوباتٍ بَعْدَ أنْ أنْفَقْتُ كُلَّ ما كُنْتُ أحْمِلُ مِنْ نُقودٍ . وَاسْتَمَعَ الرَّجُلُ إلى شَكْواي ، وَصَمَتَ قَليلًا ، ثُمَّ قالَ لي إنَّ الحُكومةَ مُلْتَزِمةٌ بِأنْ تَرُدَّ إلَيَّ كُلَّ ما

أَنْفَقْتُ مِنْ نُقودٍ عَلى ٱلْمَسْكَنِ وَٱلْغِذاءِ أَثْناءَ إِقامَتي في لَنْدَن ، وَإِنَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُبَ مُقابَلَةَ ٱلْقاضي ٱلَّذي أَمَرَني بِٱلْمَجيءِ إِلى هٰذا ٱلْمَكانِ .

شَكَرْتُ ٱلرَّجُلَ ، وَشَرَعْتُ في مُغادَرَةِ ٱلْمَكانِ ، وَلٰكِنَّهُ أَمْسَكَ بِذِراعي قائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تَدْفَعَ لي أَجْرَ هٰذِهِ ٱلِاسْتِشارَةِ : أُريدُ جُنَيْهَيْنِ . »

شَعَرْتُ بِٱلْخَوْفِ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ ، فَقَدْ كُنْتُ لا أَحْمِلُ نُقودًا وَقُلْتُ بِصَوْتٍ تَشوبُهُ ٱلدَّهْشَةُ : « لٰكِنَّكَ يا سَيِّدي ، سَأَلْتَني عَنْ صِحَّةِ والِدَتي . لَقَدْ كُنّا نَتَبادَلُ حَديثًا وُدِّيًّا فَحَسْبُ ! »

رَدَّ قائِلًا : « وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ لَدَيَّ وَقْتًا أُضَيِّعُهُ في ٱلْأَحاديثِ ٱلْوُدِّيَّةِ ؟ إِنَّني رَجُلُ أَعْمالٍ . هَيّا أَخْرِجْ نُقودَكَ ، يا جون رِد . لابُدَّ مِنْ أَنْ أَحْصُلَ عَلى جُنَيْهَيْنِ . »

شَعَرْتُ بِٱلْغَضَبِ ، فَأَجَبْتُهُ عَلى ٱلْفَوْرِ : « حَسَنًا ، لَقَدْ أَخْبَرْتَني بِأَنَّ ٱلْحُكومَةَ مُلْزَمَةٌ بِدَفْعِ تَكاليفِ إِقامَتي هُنا في لَنْدَن . تَعالَ مَعي إِذًا لِنُطْلِعَ ٱلْقاضِيَ عَلى هٰذا ٱلْأَمْرِ . » وَأَمْسَكْتُ بِذِراعِهِ ، وَجَذَبْتُهُ بِشِدَّةٍ نَحْوَ غُرْفَةِ ٱلْقاضي .

عِنْدَما أَدْرَكَ ٱلرَّجُلُ أَنَّني سَآخُذُهُ إِلى ٱلْقاضي ، خافَ وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ جُنَيْهَيْنِ ذَهَبِيَّيْنِ وَوَضَعَهُما في يَدي ثُمَّ وَلّى هارِبًا .

خَرَجَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَحَدُ ٱلْكَتَبَةِ مِنْ غُرْفَةِ ٱلْقاضي وَأَمَرَني بِٱلدُّخولِ ، فَدَخَلْتُ ٱلْحُجْرَةَ ، وَوَقَفْتُ أَمامَ أَقْوى رَجُلٍ في إِنْجِلْتِرا : ٱلْقاضي جيفْريز . لَمْ تَكُنِ ٱلْحُجْرَةُ كَبيرَةً جِدًّا . وَكانَ في نِهايَتِها ثَلاثَةُ مَقاعِدَ عالِيَةٍ يَجْلِسُ عَلَيْها ثَلاثَةُ رِجالٍ ، يَتَوَسَّطُهُمْ رَجُلٌ ضَخْمٌ مَهيبٌ ذو نَظَراتٍ حادَّةٍ غاضِبَةٍ ، هُوَ ٱلْقاضي جيفْريز .



سَأَلَني : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فَأَجَبْتُ : « جُون رِد الَّذي اِسْتَدْعاهُ جيرِيمي سْتِكِلز مُنْذُ شَهْرَيْنِ لِلْحُضورِ إلى لَنْدَن . لَقَدْ مَكَثْتُ هُنا مُدَّةَ شَهْرَيْنِ دُونَ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا . وَأَرْغَبُ الآنَ في الْعَوْدَةِ إلى قَرْيَتي بَعْدَ أَنْ نَفِدَ كُلُّ ما لَدَيَّ مِنْ نُقودٍ . »

سَأَلَني الْقاضي : « أَلَمْ تُسَدِّدْ لَكَ الْحُكومَةُ بَعْدُ أَجْرَ السَّفَرِ وَتَكاليفَ الإِقامَةِ في الْمَدينَةِ ؟ »

أَجَبْتُ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدي »

فَنادَى الْقاضي الْمُوَظَّفَ الْمُكَلَّفَ بِخِدْمَتِهِ قائِلًا : « ادْفَعْ لِهٰذا الرَّجُلِ في الْحالِ ، يا سبانْك ، وَدَعْهُ يَعودُ في الْغَدِ لِمُقابَلَتي . »

عُدْتُ في الْيَوْمِ التّالي إلى الْمَحْكَمَةِ . وَسَأَلَني الْقاضي : « هَلْ يُوجَدُ في الإِقْليمِ الَّذي تَعيشُ فيهِ بَعْضُ اللُّصوصِ الَّذينَ يُلْحِقونَ الأَذَى بِالنّاسِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَجَلْ ، يا سَيِّدي . »

سَأَلَني : « وَلِماذا لا يَنْهَضُ لوردُ وِيشِيهالس لِمُحارَبَتِهِمْ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « إِنَّ آلَ دُون مِنْ أَصْلٍ عَريقٍ ، وَهُمْ يَقْطُنونَ وادِيًا حَصينًا ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ لوردَ وِيشِيهالس يَخْشاهُمْ . »

سَأَلَني : « ما اسْمُ هٰؤُلاءِ الْقَوْمِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « آلُ دُون ، يا سَيِّدي . وَعَدَدُهُمْ أَرْبَعونَ تَقْريبًا . »

صاحَ الْقاضي بِدَهْشَةٍ : « أَرْبَعونَ مِنْ آلِ دُون ! أَرْبَعونَ مِنَ اللُّصوصِ ! وَمَتَى اسْتَقَرّوا هُناكَ ؟ »

قُلْتُ : « مُنْذُ حَوالَى ثَلاثينَ عامًا ، ياسَيِّدي . »

سَأَلَني الْقاضي وَهُوَ يَتَفَرَّسُ فِيَّ : « أَلَمْ يَخْطِرْ بِبالِكَ يَوْمًا أَنَّ لوردَ وِيشِيهالس قَدْ يَكونُ صَديقًا لِآلِ دُون ؟ »

دَهِشْتُ دَهْشَةً شَديدَةً ، إِذْ لَمْ تَخْطِرْ لي هٰذِهِ الْفِكْرَةُ مِنْ قَبْلُ ، مَعَ أَنَّهُ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ صَحيحَةً .

قالَ الْقاضي : « تُنْبِئُني عَيْناكَ يا جُون رِد بِكُلِّ ما أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَهُ . وَأَرَى أَنَّكَ لَمْ تُفَكِّرْ في مِثْلِ هٰذا الأَمْرِ مِنْ قَبْلُ . وَالآنَ ، أَخْبِرْني : هَلْ سَبَقَ لَكَ أَنْ رَأَيْتَ رَجُلًا يُدْعَى تُوم فاجِّس ؟ »

قُلْتُ : « أَجَلْ ، رَأَيْتُهُ كَثيرًا يا سَيِّدي ، فَهُوَ ابْنُ عَمّي . »

قالَ الْقاضي : « إِنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ . لا رَيْبَ في أَنَّهُ لِصٌّ ، وَلٰكِنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ بِالرَّغْمِ مِنْ ذٰلِكَ ، وَهُوَ يَخْدُمُ الْمَلِكَ بِإِخْلاصٍ . وَالآنَ قُلْ لي : هَلْ هُناكَ أَحاديثُ تَدورُ في إِقْليمِكَ عَنْ عِصْيانٍ يُدَبَّرُ ضِدَّ جَلالَةِ الْمَلِكِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلّا ، يا سَيِّدي . نَحْنُ قَوْمٌ هادِئونَ مُطيعونَ ، وَنَخْدُمُ الْمَلِكَ بِإِخْلاصٍ كَما يُمْلي عَلَيْنا الْواجِبُ . »

قالَ الْقاضي : « هٰذا حَسَنٌ . إِنّي مُعْجَبٌ بِكَ يا جُون رِد ، فَأَنْتَ رَجُلٌ طَيِّبٌ . تَحَسَّسْ آلَ دُون ، وَتَجَنَّبْ لوردَ وِيشِيهالس أَيْضًا . وَلا تَذْكُرْ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِمّا جَرى هُنا . وَسَوْفَ أَبْعَثُ بِأَحَدِ رِجالي إلى بَلْدَتِكَ لِيُطْلِعَني عَلى سَيْرِ الأَحْوالِ فيها . وَالآنَ ، عُدْ إلى قَرْيَتِكَ ، وَسَوْفَ أَتَذَكَّرُكَ دائِمًا . »

الفصلُ ٱلرَّابعَ عشَرَ

العَوْدةُ إلى ٱلبَيْتِ

سافَرْتُ بِمُفْرَدي عائِدًا مِنْ نَفسِ ٱلطَّريقِ ٱلطَّويلِ إلى إقْليمِ سُومِرْسِت . وَلَمْ أُصادِفْ أَخْطارًا في ٱلطَّريقِ ، غَيْرَ أَنَّني دَهِشْتُ لِرُؤْيةِ أُخْتي آني واقِفةً في انْتِظاري على قِمَّةِ ٱلتَّلِّ الواقِعِ قُرْبَ ٱلمَنْزِلِ . وَقالَتْ لي إنَّها كانَتْ تَجيءُ إلى ذٰلِكَ ٱلمَكانِ صباحَ ٱلسَّبْتِ مِنْ كُلِّ أُسْبوعٍ ، لِأَنَّها كانَتْ مُتأَكِّدةً مِنْ أَنَّني سَوْفَ أَعودُ يَوْمَ سَبْتٍ .

قَدَّمْتُ لِأُمِّي وَلِأُخْتيَّ ما اشْتَرَيْتُ لَهُنَّ مِنْ هَدايا في لَنْدَن ، فَسُرِرْنَ بِها ، وَسَأَلْنَني أَسْئِلةً كَثيرةً جِدًّا عَنْ تِلْكَ ٱلمَدينةِ ٱلعَظيمةِ . وَما لَبِثَتْ عَواطِفي وَأَفْكاري أَنِ اتَّجَهَتْ إلى لُورْنا في ٱليَوْمِ ٱلتَّالي ، فَخَرَجْتُ مُبَكِّرًا في ٱلصَّباحِ ، وَذَهَبْتُ إلى جانِبِ ٱلتَّلِّ الَّذي أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى مِنْهُ ٱلحَجَرَ ٱلأَبْيَضَ . وَكانَ ٱلحَجَرُ مُغَطًّى بِقِطْعةٍ مِنَ ٱلقُماشِ ٱلأَسْوَدِ !

لَمْ أَعْرِفْ بِالطَّبْعِ مَتى وَضَعَتْ لُورْنا ٱلقُماشَ عَلى ٱلحَجَرِ . غَيْرَ أَنَّني لَمْ أُضِعْ لَحْظةً أُخْرى ، فَتَوَجَّهْتُ مُباشَرةً إلى ٱلشَّلَّالِ ، وَتَسَلَّقْتُهُ داخِلًا الوادي . كانَتِ ٱلطُّيورُ تُغَرِّدُ في أَعْشاشِها تَحْتَ شَمْسِ ٱلأَصيلِ ٱلذَّهَبيَّةِ ، وَكانَتِ ٱلأَشْجارُ تَلْمَعُ في ضَوْءِ ٱلغُروبِ الباهِتِ . وَوَقَفْتُ أَنْتَظِرُ هُناكَ .

أَخيرًا ظَهَرَتْ لُورْنا مِنْ بَعيدٍ ، وَكانَتْ تَبْدو صَغيرةً وَجَميلةً جِدًّا وَهِيَ تَسيرُ بَيْنَ ٱلظِّلالِ ٱلمُتَرامِيةِ . وَجَرَيْتُ نَحْوَها غَيْرَ مُبالٍ بِالحُرَّاسِ أَوِ ٱلأَخْطارِ

ٱلكَثيرةِ ٱلمُحْدِقةِ بي . غَيْرَ أَنَّ ٱلخَوْفَ كانَ يَبْدو في عَيْنَيْها .

قُلْتُ في لَهْفةٍ : « لَقَدْ كُنْتِ في حاجةٍ إلَيَّ إذًا ! »

أَجابَتْ : « نَعَمْ ، وَلٰكِنْ كانَ ذٰلِكَ مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ ، كانَ ذٰلِكَ مُنْذُ شَهْرَيْنِ ، وَٱلآنَ هَيَّا بِنا نَبْتَعِدُ عَنْ هٰذا ٱلمَكانِ ٱلمَكْشوفِ ، وَتَعالَ نَسيرُ بَيْنَ ظِلالِ ٱلأَشْجارِ . » وَقادَتْني لُورْنا إلى مَخْبَئِها ٱلأَمينِ .

بَدَأَتْ حَديثَها بِسُؤالي : « لِماذا تَخَلَّيْتَ عَنِّي ؟ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ ٱلإشارةَ ، وَلٰكِنَّكَ لَمْ تَسْتَجِبْ ، فَلِماذا لَمْ تَأْتِ ؟ لَقَدْ تَرَكْتَني لِلآخَرينَ لِيَفْعَلوا بي ما يَشاءُونَ . إنَّهُمْ يُحاوِلونَ إجْباري عَلى ٱلزَّواجِ بِكارْفَر ، كَما أَنَّ تشارْلي دُون يَتَطَلَّعُ إلَيَّ ، وَجَدِّي يَخْشى أَنْ يَتَقاتَلَ تشارْلي وَكارْفَر مِنْ أَجْلي . »

لَنْ أُعيدَ عَلَيْكُمْ ما قُلْتُهُ لَها مِنْ وُعودٍ بِأَلَّا أَتْرُكَها مَرَّةً أُخْرى . وَقَدَّمْتُ لَها ٱلهَديَّةَ ٱلَّتي أَحْضَرْتُها مِنْ لَنْدَن . وَسُرْعانَ ما صَفَحَتْ عَنِّي ، وَوَضَعْنا مَعًا خُطَّةً تُراسِلُني بِمُقْتَضاها إذا ما احْتاجَتْ إلَيَّ .

قالَتْ لي : « وَٱلآنَ اذْهَبْ يا جُون ، لِأَنَّ ٱلوَقْتَ قَدْ حانَ لِتَعودَ إلى أُمِّكَ . » وَأَكْمَلَتْ ضاحِكةً : « يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتيَ لِتَراني مَرَّةً أُخْرى بَعْدَ شَهْرَيْنِ . » وَانْصَرَفْتُ .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

الخالُ رِيُوبِن مَرَّةً أُخرَى

عِنْدَما عُدْتُ مِنْ وادي آلِ دُون ، وَجَدْتُ الرِّجالَ في المَزْرَعةِ يَسْتَعِدُّونَ لِحَصْدِ القَمْحِ ، فاشْتَرَكْتُ في العَمَلِ مَعَهُمْ .

وَبَيْنَما كُنّا مُنْهَمِكينَ في الحَصادِ ، وَصَلَ الخالُ رِيُوبِن ، مَعَ حَفيدَتِهِ رُوث هكّاناك وَكانَتْ أُمّي تَرْغَبُ في أَنْ أَتَزَوَّجَ رُوث ، لِأَنَّها كانَتْ – كَما ذَكَرْتُ مِنْ قَبْلُ – الوَريثَةَ لِكُلِّ أَمْوالِ جَدِّها رِيُوبِن .

كانَ الخالُ رِيُوبِن مشغولًا بِمُهِمَّةٍ خاصَّةٍ ، وَكانَ يَخْرُجُ عَلى جَوادِهِ مِنْ أَجْلِها إِلى التِّلالِ البَعيدَةِ كُلَّ يَوْمٍ . وَكُنّا نَسْمَعُ أَقاصيصَ غَريبَةً عَنْ أَشْخاصٍ تَمَرَّدوا عَلى المَلِكِ وَيَتَهَيَّأُونَ لِلْقِتالِ ضِدَّهُ . عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرْتُ ما قالَهُ لي القاضي جيفْرِيز فَلَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ ، غَيْرَ أَنّي كُنْتُ أَخْشَى ما قَدْ يَحْدُثُ فِيما بَعْدُ .

ذاتَ مَساءٍ ، رَأَيْتُ أُخْتي آني جالِسَةً بِمُفْرَدِها عِنْدَ قَبْرِ والِدي . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّها تَتَطَلَّعُ إِلى زِيارَةٍ مِنْ تُوم فاجَس . وَأَخَذْتُ أُحَدِّثُها عَنْ تُوم ، وَنَصَحْتُها بِالابْتِعادِ عَنْهُ لِأَنَّهُ قاطِعُ طَريقٍ .

انْدَفَعَتْ قائِلَةً : « وَمَنْ هُمْ آلُ دُون ؟ أَلَيْسوا قُطّاعَ طُرُقٍ كَذٰلِكَ ؟! وَمَعَ هٰذا فَأَنْتَ تُحِبُّ واحِدَةً مِنْهُمْ . »

اعْتَرَتْني دَهْشَةٌ شَديدَةٌ فَقُلْتُ لَها : « لٰكِنْ كَيْفَ عَرَفْتِ ذٰلِكَ ؟ »

أَجابَتْ : « لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ . وَلٰكِنْ كانَ لَدَيَّ إِحْساسٌ أَنَّكَ وَلُورْنا

مُتَحابّانِ . أَمّا الآنَ ، فَقَدْ تَأَكَّدْتُ مِنَ الأَمْرِ . »

عِنْدَئِذٍ أَخْبَرْتُها بِقِصَّةِ حُبّي لِلُورْنا بِأَكْمَلِها .

لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ ما كانَ يَفْعَلُهُ خالي رِيُوبِن في التِّلالِ البَعيدَةِ ، وَلٰكِنَّهُ سافَرَ بِمُفْرَدِهِ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيّامٍ تارِكًا رُوث لِلْبَقاءِ مَعَنا فَتْرَةً أُخرى . وَكانَتْ أُمّي تُحَدِّثُني كَثيرًا عَنْ رُوث وَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ أُطْلِعَ أُمّي عَلى حُبّي لِلُورْنا ، لِانْتِمائِها إِلى آلِ دُون الَّذينَ قَتَلَ واحِدٌ مِنْهُمْ والِدي .

عِنْدَما قابَلْتُ لُورْنا في المَرَّةِ الأَخيرَةِ ، دَفَعَتْني لِأَنْ أَعِدَها بِأَلّا أَزورَها ثانِيَةً قَبْلَ مُرورِ شَهْرَيْنِ ، ما لَمْ تَبْعَثْ هِيَ في طَلَبي . وَما إِنِ انْقَضَى الشَّهْرانِ ، حَتّى أَسْرَعْتُ إِلى الصَّخْرَةِ أَتَسَلَّقُها . وَبَقيتُ في الوادي إِلى أَنْ حَلَّ المَساءُ وَظَهَرَ القَمَرُ في السَّماءِ ، وَلٰكِنَّ لُورْنا لَمْ تَأْتِ لِلِقائي .

ذَهَبْتُ إِلى الوادي مَرَّةً أُخْرى ، أَحْمِلُ إِلَيْها هَدِيَّةً مِنَ السَّمَكِ وَالبَيْضِ . وَوَضَعْتُ الهَدِيَّةَ في حُفْرَةٍ صَغيرَةٍ تَكْسوها الحَشائِشُ قُرْبَ ضِفَّةِ النَّهْرِ . وَما إِنْ خَبَّأْتُها هُناكَ حَتّى رَأَيْتُ رَجُلًا قادِمًا نَحْوي مِنْ بَعيدٍ ، فَاخْتَبَأْتُ بِسُرْعَةٍ خَلْفَ إِحْدَى الأَشْجارِ .

اقْتَرَبَ الرَّجُلُ ، فَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ كارْفَر دُون . وَكانَ صارِمَ الوَجْهِ ، قاسِيَ المَلامِحِ . إِذًا فَهٰذا هُوَ الرَّجُلُ الَّذي يُريدُ الزَّواجَ بِلُورْنا !

سارَ كارْفَر إِلى ضِفَّةِ النَّهْرِ ، وَرَأَى الحُفْرَةَ الَّتي تَكْسوها الحَشائِشُ وَما في داخِلِها مِنَ البَيْضِ وَالسَّمَكِ ، فَصاحَ قائِلًا : « ها ! تَشارْلي ! إِذًا فَتَشارْلي يَتْرُكُ هَداياهُ هُنا لِلُورْنا ! »

أخرج الهدية من الحفرة، وانطلق بها بعيدًا. وانتظرت أنا طويلا بعد ذلك، ولكن لورنا لم تحضر. لقد تلاشى كل ما في المساء من سحر وجمال!

أتيت مرة أخرى، وتوجهت إلى مخبإ لورنا، ووقفت منتظرا قرب الباب، وفجأة سمعت طلقة بندقية، واخترقت الرصاصة قبعتي، وأطارتها من فوق رأسي إلى النهر حيث جرفتها مياه الشلال. وأسرعت بالاختباء خلف إحدى الصخور.

خرج كارفر من مخبئه، وجرى إلى حافة الشلال. ووقف على بعد متر واحد من مخبئي. وتلفت حوله، ثم صاح: «هل صرعتك هذه المرة يا تشارلي؟ إنها ثالث مرة أطلق فيها الرصاص عليك؟»

ابتعد وهو يقهقه. وضحكت أنا أيضا – إذ ربما تحين فرصتي يوما ما للإطاحة برأس قاتل والدي. وقفلت راجعا إلى المنزل.

في ذلك المساء، جاءت خادمتنا بيتي، وأشارت لي إشارات غريبة. ثم اقتربت مني وهمست في أذني قائلة: «لورنا دون!» وتبعتها في سرعة إلى خارج البيت. وما إن ابتعدنا عنه بضعة أمتار حتى قالت لي: «أحمل إليك رسالة من لورنا دون أتت بها خادمتها: لن تستطيع لورنا أن تقابلك في المساء، فاذهب إليها في الصباح.»

الفصل السادس عشر

السؤال الهام

صحوت مبكرا في اليوم التالي، قبل أن تشرق شمس أكتوبر التي كثيرا ما تحجبها السحب في إنجلترا. وتسلقت الصخرة على حين كان نور الفجر يغمر التلال. وكان الشتاء على الأبواب، وقد اكتست الأشجار بظلال أرجوانية مذهبة.

وقفت أخيرا على قمة الصخرة. وتطلعت إلى الوادي، فرأيت لورنا قادمة من بيتها. وما إن رأتني حتى جرت إلي قائلة: «ها قد أتيت أخيرا، يا جون! لم يكن في إمكاني أن أنبئك بما حدث حتى تغفر لي عدم حضوري للقائك. لقد أجبروني على أن أبقى حبيسة المنزل في المساء.»

تبعتها إلى مخبئها داخل الصخور. وشعرت بأن أهم لحظة في حياتي قد دنت: لحظة أن تصرح لي لورنا بحبها. وأخذت تتحدث عن الصعاب التي تواجهها والأخطار المحدقة بها، ولكني قاطعتها في رقة قائلا: «ليس هذا ما جئت لمعرفته.»

قالت متظاهرة بأنها لم تدرك ما أرمي إليه: «إذا كنت تريد أن تسألني عن شيء خاص، فلماذا التردد؟»

أسرعت أسألها: «لورنا، هل تحبينني؟»

أجابَتْ : « نَعَمْ ، أُحِبُّكَ ياجُون ، وَلٰكِنْ ما جَدْوى هٰذا ٱلحُبِّ ؟ إنَّ حياتي مَحْفوفَةٌ بِٱلصِّعابِ وَٱلمَخاطِرِ الَّتي تَقِفُ حائِلًا دونَ زَواجِنا . إنَّ زَواجَنا مُسْتَحيلٌ ... مُسْتَحيلٌ . »

عِنْدَما عُدْتُ إلى ٱلمَنْزِلِ ، وَجَدْتُ تُوم فاجّس هُناكَ . كانَ قَدْ حَضَرَ لِيَطْلُبَ إلى أُمّي ٱلزَّواجَ بِأُخْتي آني . وَعِنْدَئِذٍ أَطْلَعْتُ أُمّي عَلى قِصَّتي مَعَ لُورْنا .

الفصلُ ٱلسّابعَ عشر

مَنْزِلُ كارْفَر

فُوجِئْتُ ذاتَ يَوْمٍ بِحُضورِ سْتِكْلز إلى بَيْتِنا ، وَقادَني إلى مَكانٍ في ٱلحَقْلِ ، وتطلَّعَ حَوْلَهُ في حَذَرٍ لِيَتَأكَّدَ مِنْ أنْ لا أحَدَ بِٱلقُرْبِ مِنْهُ ثُمَّ قالَ :

« سَوْفَ أُطْلِعُكَ ٱلآنَ ياجُون عَلى سَبَبِ هٰذِهِ ٱلزِّيارَةِ ٱلمُفاجِئَةِ ، بِما أنَّ ٱلقاضي جيفْريز قَدْ سَبَقَ وَأَلْمَحَ إلَيْكَ بِشَيْءٍ عَنِ ٱلأَمْرِ : هُناكَ رَجُلٌ يُدْعى دُوق مُونْمَوْث يَحْشِدُ رِجالًا لِلْقِتالِ ضِدَّ ٱلمَلِكِ ، وَلَقَدْ أَرْسَلَني ٱلقاضي لِجَمْعِ مَعْلوماتٍ بِهٰذا ٱلشَّأْنِ ، كَما أنَّهُ مِنَ ٱلمُتَوَقَّعِ أنْ يَصْدُرَ إلَيْكَ أَمْرٌ بِٱلقِتالِ في صَفِّ ٱلمَلِكِ . »

ظَلَّتْ لُورْنا لِعِدَّةِ أيّامٍ تُرْسِلُ لِيَ ٱلإشارَةَ تِلْوَ ٱلأُخْرى ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنْ ذٰلِكَ . وَتَمَلَّكَني ٱلخَوْفُ وَٱلقَلَقُ ، وَكانَ خَوْفي وَقَلَقي يَتَزايَدانِ كُلَّ يَوْمٍ . وَذَهَبْتُ إلى ٱلوادي ثَلاثَ مَرّاتٍ ، وَظَلَلْتُ أَتَرَقَّبُ حُضورَها دونَ جَدْوى .

وَتَوَغَّلْتُ ذاتَ يَوْمٍ داخِلَ ٱلوادي ، سائِرًا بِمُحاذاةِ ٱلنَّهْرِ ، إلى أنْ أَتَيْتُ إلى مَنْزِلٍ حَجَرِيٍّ صَغيرٍ . كُنْتُ أَعْرِفُ أنَّ ذٰلِكَ هُوَ مَنْزِلُ كارْفَر دُونَ . وَتَوَقَّفْتُ عِنْدَ بابِ ٱلمَنْزِلِ ، وَأَنْصَتُّ جَيِّدًا ، فَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ أَحَدٍ بِٱلدّاخِلِ . ثُمَّ دُرْتُ حَوْلَ ٱلمَنْزِلِ ، وَتَفَحَّصْتُ ٱلأَبْوابَ وَٱلنَّوافِذَ بِدِقَّةٍ . وَكانَ مِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ أنْ فَعَلْتُ ذٰلِكَ — لِسَبَبٍ سَوْفَ أَذْكُرُهُ فيما بَعْدُ .

وَعَزَمْتُ عَلى أنْ أَتَوَغَّلَ في ٱلوادي مَرَّةً أُخْرى بادِئًا مِنْ أَوَّلِهِ ، لِأَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَبيبَتي لُورْنا .

الفصلُ الثّامنَ عشرَ

عَبْرَ بَوّابةِ آلِ دُون

دُرْتُ حَوْلَ التّلالِ الواقِعةِ في الجنوبِ ، لِأتمكّنَ مِنْ دُخولِ وادي آلِ دُون عَبْرَ بَوّابَتِهِ . كانَتِ المَسيرةُ طَويلةً ، وَأَوْشَكَ الظّلامُ عَلى الهُبوطِ عِنْدَما كُنْتُ أَقْتَرِبُ مِنَ البَوّابَةِ . وَما إنْ بَلَغْتُها ، وَوَقَفْتُ مُتَطَلِّعًا إلَيْها حَتّى بَزَغَ القَمَرُ وَغَمَرَ بِضَوْئِهِ المَكانَ . وَخَطَوْتُ بِسُرْعةٍ إلى الخَلْفِ ، لِأتَوارى في دائِرةِ الظِّلِّ .

رَأَيْتُ شَجَرةً ضَخْمةً مُعَلَّقةً فَوْقَ البَوّابةِ ، يَسْهُلُ إسْقاطُها عَلى رَأْسِ أَيِّ مُقْتَحِمٍ يُحاوِلُ اجْتيازَ البَوّابةِ إلى الدّاخِلِ . وَكانَ في البَوّابةِ ثَلاثةُ مَداخِلَ لا يَعْلَمُ سِوى آلِ دُون أَيًّا مِنْها المَدْخَلَ الصَّحيحَ . وَكانوا يُغَيِّرونَ هٰذا المَدْخَلَ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ حَتّى لا يَعْلَمَ أَعْداؤُهُمْ أَيَّ مَدْخَلٍ يَسْلُكونَ . وَمِلْتُ إلى الظَّنِّ أَنَّ المَدْخَلَ الأَوْسَطَ هُوَ المَدْخَلُ الصَّحيحُ في وَقْتِ السِّلْمِ فَسَلَكْتُهُ . وَاكْتَنَفَني ظَلامٌ دامِسٌ . وَسَقَطْتُ فَوْقَ شَيْءٍ صُلْبٍ طَويلٍ ، وَتَحَسَّسْتُ ذٰلِكَ الشَّيْءَ فَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ مِدْفَعٌ ضَخْمٌ ، فَأَيْقَنْتُ أَنّي أَسيرُ في الطَّريقِ الصَّحيحِ .

عِنْدَما بَلَغْتُ المُنْعَطَفَ التّاليَ مِنَ الطَّريقِ ، أَبْصَرْتُ اثْنَيْنِ مِنْ آلِ دُون يَحْرُسانِ المَكانَ وَبِيَدِ كُلٍّ مِنْهُما بُنْدُقِيّةٌ . وَكانَ ثَمَّةَ مِصْباحٌ عَلى الأَرْضِ ، وَكانا مُنْهَمِكَيْنِ في لُعْبةٍ مِنْ أَلْعابِ الحَظِّ . وَكانَ تشارْلي دُون هُوَ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ ، أَمّا الثّاني فَاسْمُهُ فيليبس – وَلَقَدْ عَرَفْتُ ذٰلِكَ عِنْدَما سَمِعْتُ كُلًّا مِنْهُما يُنادي الآخَرَ بِاسْمِهِ .

وَسُرْعانَ ما دَخَلا في شِجارٍ عَلى اللَّعِبِ . وَقَذَفَ تشارْلي بِكُوبِهِ في وَجْهِ فيليبس ، فَسَقَطَ الكُوبُ فَوْقَ المِصْباحِ . وهُنا صاحَ فيليبس قائِلًا : « لَقَدْ كُسِرَ المِصْباحُ ! اذْهَبْ وَأَحْضِرْ مِصْباحًا مِنْ مَنْزِلِ كارْڤَر . »

نَهَضَ تشارْلي وَهُوَ يَشْدو بِأُغْنِيَّةٍ قَصيرةٍ غَريبةٍ . وَمَرَّ بِالقُرْبِ مِنّي فَلامَسَ مِعْطَفُهُ يَدي وَتَبِعْتُهُ وَهُوَ يَنْعَطِفُ ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ . إلى أَنْ خَرَجْتُ في نِهايةِ الأَمْرِ إلى أَرْضٍ مَكْشوفةٍ ، وَرَأَيْتُ السَّماءَ الصّافيةَ يَتَوَسَّطُها البَدْرُ المُنيرُ ، كَما رَأَيْتُ أَمامي مَنازِلَ آلِ دُون كُلَّها .

واصَلَ تشارْلي السَّيْرَ ، وَأَنا أَتْبَعُهُ بَيْنَ الظِّلالِ . وَمَرَرْتُ بِمَنْزِلِ سِير إنْسُور . وَتَوَقَّفَ تشارْلي عِنْدَ مَنْزِلِ كارْڤَر . وَفُتِحَ البابُ ، وَأَطَلَّ مِنْهُ كارْڤَر قائِلًا : « ماذا تُريدُ في هٰذِهِ السّاعةِ مِنَ اللَّيْلِ ؟ » فَأَجابَ تشارْلي : « أُريدُ مِصْباحًا آخَرَ غَيْرَ الَّذي انْكَسَرَ . »

أَمّا أَنا فَقَدْ واصَلْتُ سَيْري إلى أَنْ بَلَغْتُ مَنْزِلَ لُورْنا دُون ، وَكانَ مَنْزِلًا مِنْ طابَقٍ واحِدٍ . وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى المُناداةِ بِصَوْتٍ عالٍ خَشْيَةَ أَنْ أَجْذِبَ انْتِباهَ الحارِسِ الَّذي كانَ يَقِفُ عَلى صَخْرةٍ عالِيةٍ ، كاشِفًا مِنْها الوادِيَ بِرُمَّتِهِ . ومالَبِثَ هٰذا الحارِسُ أَنِ اتَّجَهَ نَحْوي مُتَسائِلًا : « مَنْ أَنْتَ ؟ أَجِبْني ! واحِد – اثْنان – ثَلاثة ، سَوْفَ أُطْلِقُ الرَّصاصَ . »

كانَتْ بُنْدُقِيَّتُهُ مُصَوَّبةً إلَيَّ . وَشَرَعْتُ أُغَنّي تِلْكَ الأُغْنِيَّةَ القَصيرةَ الغَريبةَ الَّتي كانَ تشارْلي يُغَنّيها مُنْذُ لَحَظاتٍ ... وَلَمْ أَدْرِ لِمَ فَعَلْتُ ذٰلِكَ !! وَلٰكِنْ ما إنْ سَمِعَ الرَّجُلُ الأُغْنِيَّةَ حَتّى بادَرَني قائِلًا : « كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . »



ثُمَّ سارَ عائِدًا إِلى مَوْقِعِهِ عَلى الصَّخْرَةِ . وَقَدْ عَرَفْتُ بَعْدَئِذٍ أَنَّ هٰذِهِ الْأُغْنِيَةَ هِيَ أُغْنِيَةُ كارْڤَر دُون السِّرِّيَّةُ الَّتي كانَ الْحُرّاسُ يَعْرِفونَهُ بِها ، وَهٰكَذا ظَنَّ الْحارِسُ أَنّي كارْڤَر دُون .

فَتَحَتْ لُورْنا النّافِذَةَ .

بَعْدَ أَنْ تَبادَلْنا التَّحِيَّةَ ، أَخْبَرَتْني بِما حَدَثَ ، وَبِالسَّبَبِ الَّذي مِنْ أَجْلِهِ كَفَّتْ عَنْ إِرْسالِ الْإِشاراتِ إِلَيَّ فَقالَتْ : « إِنَّ جَدّي سِير إِنْسُور ، مَريضٌ جِدًّا . وَأَخْشى أَنْ تَكونَ حَياتُهُ قَدِ اقْتَرَبَتْ مِنْ نِهايَتِها ! إِنَّ الْمُسْتَشارَ وَكارْڤَر هُما سَيِّدا الْوادي ، وَأَنا لا أَجْرُؤُ عَلى مُغادَرَةِ الْبَيْتِ . وَهُما لا يَسْمَحانِ ،

حَتّى لِخادِمَتي جُويني ، بِالْخُروجِ مِنْهُ . »

قُلْتُ عَلى الْفَوْرِ : « وَلٰكِنْ هَبي أَنَّ خَطَرًا ما قَدْ أَحْدَقَ بِكِ ، فَكَيْفَ أَعْرِفُ ذٰلِكَ ؟ يَجِبُ أَنْ تُعْطيني إِشارَةً . »

فَكَّرَتْ لُورْنا بُرْهَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « هَلْ تَرى الشَّجَرَةَ الْعالِيَةَ الَّتي بَنَتْ فيها الطُّيورُ سَبْعَةَ أَعْشاشٍ ؟ يُمْكِنُكَ أَنْ تَراها بِوُضوحٍ وَأَنْتَ خارِجَ الْوادي . وَتَسْتَطيعُ جُويني أَنْ تَتَسَلَّقَ هٰذِهِ الشَّجَرَةَ ، وَلَسَوْفَ أَدَعُها تُزيلُ واحِدًا مِنْ هٰذِهِ الْأَعْشاشِ إِذا ما تَعَرَّضْتُ لِلْخَطَرِ ؛ فَإِذا رَأَيْتَ عَلى الشَّجَرَةِ سِتَّةَ أَعْشاشٍ فَقَطْ ، فَاعْلَمْ أَنّي في خَطَرٍ ، أَمّا إِذا رَأَيْتَ خَمْسَةً فَحَسْبُ فَاعْلَمْ أَنَّني قَدْ لَقيتُ مَصْرَعي عَلى يَدِ كارْڤَر دُون . »

وَافْتَرَقْنا بَعْدَ وَداعٍ حارٍّ ، وَأَخَذْتُ طَريقي إِلى الْمَنْزِلِ .

الفصلُ التاسعَ عشرَ

مؤامرةٌ للاغتيالِ

كانَ جيريمي ستيكلز ما زالَ مُقيمًا مَعَنا . وكانَ مَسلكُهُ يتَّسِمُ بالغرابةِ . فقدْ كانَ يَخرُجُ كلَّ صباحٍ ، ويَعودُ في ساعةٍ متأخرةٍ مِنَ اللَّيلِ ، دونَ أنْ يَعرِفَ أحدٌ مِنّا شيئًا عمّا كانَ يفعَلُهُ .

حضرَ تُوم فاجس إلى منزلِنا ذاتَ يومٍ ، وتحدَّثَ معَ أُختي آني . وخرجْتُ مِنَ البيتِ بمُفرَدي يومَئذٍ ، وأنا أُفكِّرُ في حُبّي للُورنا ، وفي الحُبِّ الذي يَرْبِطُ بينَ تُوم وآني ؛ كيفَ أنَّ حُبَّهُما يَسيرُ في سُهولةٍ ويُسْرٍ ، على حينِ يتعثَّرُ حُبُّنا .
وذهبْتُ إلى الغابةِ الصَّغيرةِ القريبةِ مِنَ المنزلِ ، واقتطعْتُ بِضعةَ عيدانٍ مِنَ الخشَبِ لتُستخدَمَ وقودًا ، ثُمَّ اتَّجهْتُ إلى مجموعةٍ مِنَ الشُّجيراتِ كانَتْ تَنمو على ضِفَّةِ نُهَيرٍ قريبٍ مِنَ الغابةِ ، لأستكمِلَ قَطْعَ العيدانِ اللّازمةِ .

بينَما كُنْتُ مُنشغِلًا في ذلكَ ، رأيْتُ ثلاثةَ رجالٍ قادمينَ مِنَ الضَّفَّةِ المُواجِهةِ . كانوا يَسيرونَ في صمتٍ وهُدوءٍ ، كأنَّهُمْ يَقتفونَ أثرَ عدوٍّ لهُمْ .. وكانَ هؤلاءِ الرِّجالُ مِنْ آلِ دُون !

اختبأْتُ بينَ الحشائشِ . وتوقَّفَ الرِّجالُ ، وتطلَّعَ أحدُهُمْ إلى الشُّجيراتِ قائلًا : « بعضُهُمْ كانَ يَقطَعُ عيدانَ الشَّجرِ . » وكانَ المتكلِّمُ هُوَ كارفَر دُون وإلى جانبِهِ وقفَ تشارلي دُون وكانَ يُرافِقُهُما لُورد ويشيهالس .

قالَ تشارلي : « لا أحدَ هُنا الآنَ .. يُمكِنُ أنْ نَختبئَ في هٰذا المكانِ ، فهُوَ

قريبٌ مِنَ الطَّريقِ الَّذي يَسلُكُهُ جيريمي ستيكلز عصرَ كلِّ يومٍ . » وأضافَ لُورد ويشيهالس : « سننتظِرُ هُنا لِكَيْ نَراهُ وهُوَ يَمُرُّ على الطَّريقِ ... ولَسوفَ تكونُ رِحلتُهُ هٰذِهِ آخِرَ رِحلةٍ يَقومُ بِها في حَياتِهِ . »

لقدْ أتَوا لِقتلِ جيريمي ستيكلز ! يَجِبُ أنْ أُسرِعَ إذًا لِتحذيرِهِ وإنقاذِ حياتِهِ . وتسلَّلْتُ في هُدوءٍ إلى خارجِ الغابةِ ، ثُمَّ شرَعْتُ في الجَرْيِ .

كُنْتُ أعرِفُ المكانَ الَّذي يَذهَبُ إليهِ جيريمي عصرَ كلِّ يومٍ . وعَدَوْتُ بأقصى ما أستطيعُ مِنْ سُرعةٍ ، والخوفُ يتملَّكُني مِنْ أنْ أسمَعَ في أيَّةِ لحظةٍ صدى طلقاتِ رصاصٍ تُنبِئُني بأنَّ جيريمي قدْ لقِيَ مصرَعَهُ . ووصلْتُ أخيرًا إلى التَّلِّ الَّذي أستطيعُ أنْ أرصُدَ مِنْهُ واديَ آلِ دُون . وفجأةً شعَرْتُ بفُوَّهةِ بُندُقيَّةٍ تضغَطُ على جَنبي .

التفتُّ ورائي فرأيْتُ جيريمي ، وصاحَ عِندَ رُؤيتي : « آهٍ ! أهُوَ أنتَ !! » ثُمَّ أنزَلَ بُندُقيَّتَهُ مُتسائلًا : « ما الَّذي جاءَ بِكَ الآنَ إلى هُنا ؟ »

أجبْتُ : « جِئْتُ لِكَيْ أُنقِذَ حياتَكَ . هُناكَ ثلاثةُ رجالٍ مِنْ آلِ دُون ينتظِرونَ قُربَ الغابةِ . إنَّهُمْ يتربَّصونَ لِقتلِكَ ! »

قالَ جيريمي : « دَعْهُمْ ينتظِرونَ ، فلَنْ أستطيعَ الآنَ إحضارَ جُنودي للقبضِ عليهِمْ ، كما لنْ نقوى – أنا وأنتَ – بمُفرَدِنا على مُواجهتِهِمْ . دعْهُمْ إذًا ينتظِرونَ . ولٰكِنْ هٰذا يَعني أنَّنا سوفَ نُضطَرُّ لمُهاجمةِ الوادي ، ومُحاربةِ آلِ دُون في عُقرِ دارِهِمْ ، أسرعَ مِمّا كُنْتُ أتصوَّرُ . »

الفَصْلُ العِشْرونَ

خُطَّةُ المَعْرَكةِ

في اليَوْمِ التّالي ، قادَني جيريمي إلى خارِجِ البَيْتِ ، وَأَخْبَرَني بِسَبَبِ قُدومِهِ إلَيْنا ، وَبِالمُهِمَّةِ الَّتي عُهِدَ بِها إلَيْهِ في المِنْطَقَةِ .

كانَ هُناكَ فَريقٌ مِنَ النّاسِ غاضِبٌ عَلى المَلِكِ ، وَيَتَأَلَّفُ في غالِبيَّتِهِ مِنَ الحَمْقى وَصِغارِ السِّنِّ . غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ اللّورْداتِ الكِبارِ كانوا يَتَوَلَّونَ قِيادَةَ هٰذا الفَريقِ ، يُشارِكُهُمْ في ذٰلِكَ آلُ دُون وَلُورْد وِيشيهالس . وَلَقَدْ أَرْسَلَ جيريمي ستِيكِلْز إلى الإقْليمِ لِمَعْرِفَةِ عَدَدِ وَأَسْماءِ هٰؤُلاءِ النّاسِ الَّذينَ يَتَهَيَّأونَ لِلْقِتالِ ضِدَّ المَلِكِ . كَما أُمِرَ بِوَضْعِ خُطَّةٍ تُمَكِّنُ جُنودَ المَلِكِ مِنِ اقْتِحامِ وادي آلِ دُون وَقَتْلِهِمْ جَميعًا ، أَوْ طَرْدِهِمْ خارِجَ الوادي عَلى الأَقَلِّ .

عِنْدَئِذٍ صِحْتُ في اسْتِنْكارٍ ، وَأَنا أُفَكِّرُ في لُورْنا : « تَقْتُلونَ آلَ دُون جَميعًا ! هٰذا شَيْءٌ فَظيعٌ ! » فَقالَ جيريمي : « أَلَيْسَ ذٰلِكَ أَفْضَلَ مِنْ تَرْكِهِمْ يَسْرِقونَ أَبْقارَكُمْ وَيَسْلُبونَ نُقودَكُمْ ؟ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ سَتُسَرُّ بِأَنْ يُقْتَلَ آلُ دُون جَميعًا ، وَلٰكِنَّني أَراكَ مُبْتَئِسًا لِذٰلِكَ !! »

أَجَبْتُ عَلى الفَوْرِ : « لَنْ أَتَدَخَّلَ في هٰذا الأَمْرِ ، وَلَنْ أُعاوِنَ في ذٰلِكَ ، وَلَنْ أُقاتِلَ في صَفِّكُمْ . »

صاحَ جيريمي قائِلًا : « أَتَرْفُضُ مُحارَبَةَ العِصابَةِ الَّتي قَتَلَتْ أَباكَ ؟ إنَّ

الخالَ ريوبن في صَفِّنا ، وَقَدْ وَعَدَ بِأَنْ يَقودَ جُنودَنا في اقْتِحامِ وادي آلِ دُون . »

غَيْرَ أَنَّ حُزْني عَلى لُورْنا كانَ شَديدًا . كُنْتُ أَخْشى ما قَدْ يَحْدُثُ لَها إذا ما وَقَعَتْ في قَبْضَةِ الجُنودِ .

الفَصلُ الحادي وَالعِشرونَ

وَفاةُ سيرِ إنسُور

في مُنتصَفِ شَهرِ ديسمْبر اشتَدَّتْ بُرودةُ الجَوِّ ، وَتَساقَطَ الثَّلجُ بِغَزارةٍ . وَخَرَجْتُ لِأَنظُرَ إلى أَعْشاشِ الطَّيرِ الَّتي جَعَلَتْها لُورْنا إشارةً لي . وَتَطَلَّعْتُ إلى تِلْكَ الأَعْشاشِ ، وَدَقَّقْتُ النَّظَرَ فيها ، فَلَمْ أَرَ سِوى سِتَّةٍ فَقَطْ ! لَقَدْ أَمَرَتْ لُورْنا خادِمَتَها بِنَزْعِ واحِدٍ مِنها . إذًا فَهِيَ في خَطَرٍ ، وَفي حاجةٍ إِلَيَّ !

كانَ كَلْبي يَقِفُ إلى جانِبي ، فَعَلَّقْتُ في رَقَبَتِهِ رِسالةً قَصيرةً إلى أُخْتي آني ، وَأَمَرْتُهُ بِالتَّوَجُّهِ إلى المَنْزِلِ . وَسُرْعانَ ما عادَ الكَلْبُ يَحْمِلُ سَلَّةً مَليئةً بِالطَّعامِ . وَما هِيَ إلّا بُرْهةٌ وَجيزةٌ حَتّى بَدَأَ في النُّباحِ . وَتَلَفَّتُّ فَرَأَيْتُ شَخْصًا يَسيرُ فَوْقَ الثَّلجِ مُتَّجِهًا ناحِيَتي . وَكانَ القادِمُ جْويني ، خادِمةَ لُورْنا .

وَبادَرَتْني قائِلةً في لَهْفةٍ : « تَعالَ مَعي الآنَ ، فَسيرُ إنْسُور يُحْتَضَرُ ، وَهُوَ يُريدُ أَنْ يَراكَ . »

سَأَلْتُ بِدَهْشةٍ : « يُريدُ أَنْ يَراني ! »

أَجابَتْ : « أَجَلْ ، يُريدُ أَنْ يَراكَ وَيَتَعَرَّفَ إلَيْكَ ، قَبْلَ أَنْ يَموتَ . »

أَرْسَلْتُ الكَلْبَ إلى البَيْتِ ، وَتَبِعْتُ جْويني .

تَسَلَّلْنا إلى الوادي عَبْرَ طَريقٍ سِرِّيٍّ تَحْجُبُهُ شُجَيْراتٌ كَثيفةٌ مُلْتَفَّةٌ . وَلَمّا اقْتَرَبْنا مِنْ مَنْزِلِ الزَّعيمِ ، مَرَرْنا بِحارِسَيْنِ مِنْ آلِ دُون وَتَطَلَّعَ الحارِسانِ إلَيَّ

وَلٰكِنْ ما إنْ أَسَرَّتْ جْويني إلَيْهِما بِبِضْعِ كَلِماتٍ حَتّى سَمَحا لي بِالمُرورِ . وَأَخيرًا بَلَغْنا مَنْزِلَ سيرِ إنْسُور وَفَتَحْتُ البابَ ، وَدَخَلْتُ . كانَتْ لُورْنا في اسْتِقْبالي .

قالَتْ : « لا تَهْتَمَّ بِما قَدْ يَقولُهُ جَدّي . لا تُجِبْ عَمّا يَسْأَلُ ، وَلا تَخْشَ مِنْهُ . » وَقادَتْني إلى الحُجْرةِ الأُخْرى . وَكانَ سيرِ إنْسُور جالِسًا عَلى كُرْسِيِّهِ ، وَقَدْ أَصابَ جَسَدَهُ الوَهْنُ الشَّديدُ ، وَكانَ بَريقُ الحَياةِ يَلْمَعُ في عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ ثَبَّتَهُما عَلَيَّ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَأَلَني : « آهِ ! هَلْ أَنْتَ جُون رِد ؟ »

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، أَنا جُون رِد . أَرْجو أَنْ تَكونَ صِحَّتُكَ في تَحَسُّنٍ يا سَيِّدي . »

صَمَتَ بُرْهةً وَجيزةً ، ثُمَّ سَأَلَني : « هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ لُورْنا دُون سَليلةُ واحِدةٍ مِنْ أَنْبَلِ وَأَعْرَقِ العائِلاتِ في إنْجِلْترا ؟ وَأَنْتَ ، أَيُّها الفَلّاحُ ، تُريدُ أَنْ تَتَزَوَّجَها ؟! »

رَدَدْتُ في الحالِ : « لا أَعْرِفُ أَنَّها سَليلةُ عائِلةٍ عَريقةٍ ، وَلٰكِنَّني أَعْرِفُ أَنَّ آلَ رِد فَلّاحونَ طَيِّبونَ ، مُنْذُ مِئاتِ السِّنينِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ آلُ دُون لُصوصًا وَسَفّاحينَ . »

قالَ سيرِ إنْسُور : « هَلْ تَعِدُني بِأَلّا تَرى لُورْنا مَرَّةً أُخْرى ؟ وَأَلّا تَتَحَدَّثَ مَعَها مُطْلَقًا بَعْدَ الآنَ ؟ نادِها إذًا . »

خَرَجْتُ وَعُدْتُ بِلُورْنا ، وَدَخَلْنا الحُجْرةَ مُتَشابِكَي اليَدَيْنِ . وَهُنا صاح

ٱلعَجوزُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْنا : « آهٍ ، أَيُّها ٱلأَحْمَقانِ ! »

أَجَبْتُ قائِلًا : « نَحْنُ سُعَداءُ تَمامًا بِهٰذِهِ ٱلحَماقَةِ ٱلَّتي تَرْبُطُنا مَعًا ، وَسَنَظَلُّ سُعَداءَ بِها عَلى ٱلدَّوامِ . »

قال ٱلزَّعيمُ : « لِتَدُمْ عَلَيْكُما نِعْمَةُ هٰذِهِ ٱلحَماقَةِ حَتَّى آخِرِ ٱلعُمْرِ ، فَهِيَ أَفْضَلُ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ أَتَمَنَّاهُ لَكُما . »

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَحَسَّسُ ٱلفِراشَ بِيَدَيْهِ كَمَنْ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ وَدَسَسْتُ يَدي داخِلَ ٱلفِراشِ لِأُعاوِنَهُ في ٱلبَحْثِ . وَسُرْعانَ ما وَقَعَتْ يَدي عَلى شَيْءٍ صُلْبٍ مَلْفوفٍ ، فَناوَلْتُهُ إِيَّاهُ . وَتَفَرَّسَ ٱلجَدُّ بُرْهَةً في ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ثُمَّ قَدَّمَهُ لِلُورِنا ٱلَّتي صاحَتْ بِدَهْشَةٍ . « يا إِلٰهي هٰذا هُوَ عِقْدي ٱلزُّجاجِيُّ ٱلبَديعُ ! لَقَدِ ٱحْتَفَظَ لي بِهِ ٱلجَدُّ ٱلعَزيزُ حَتَّى لا يَعْبَثَ بِهِ ٱلأَطْفالُ ! وَهٰذا أَيْضًا خاتَمي ٱلقَديمُ ٱلثَّمينُ ! »

قَدَّمَتْ لي ٱلعِقْدَ وَٱلخاتَمَ قائِلَةً : « ٱحْتَفِظْ لي بِٱلعِقْدِ ، فَسَيَكونُ في أَمانٍ أَكْثَرَ مَعَكَ . أَمَّا ٱلخاتَمُ فَضَعْهُ في إِصْبَعِكَ . »



الفصلُ الثاني والعشرونَ

طعامٌ للجوعى

اشتدَّ تساقطُ الثلجِ ، وسدَّ مجرى النهرِ ، وملأَ الطرقَ ، وارتفعَ حتّى بلغَ نوافذَ المنازلِ ، فاضطُرِرْنا إلى حفرِ دروبٍ لنا في الثلجِ حتّى نتمكّنَ من السيرِ خارجَ البيوتِ . وكادتْ مواشينا تهلكُ من كتلِ الثلجِ المتراصّةِ في الحقولِ ، وكانَ علينا أنْ نُسرعَ لإنقاذِها .

كانَ السيرُ على الثلجِ الهشِّ عسيرًا جدًّا ، ولكنَّ آني – التي كانتْ مولعةً بقراءةِ الكتبِ – أخبرتْني أنَّ سكّانَ البلادِ الباردةِ يصنعونَ لأنفسِهِمْ ما يُسمّى بقباقيبِ الثلجِ ، ليتمكّنوا من السيرِ بها على الثلجِ الهشِّ دونَ أنْ يغوصوا فيهِ . وصنعتُ لنفسي قبقابَ ثلجٍ ، ووجدتُ باديءَ الأمرِ أنَّ السيرَ بهِ شاقٌّ للغايةِ . ولكنْ لمْ ألبثْ أنْ تمرّنتُ على المشيِ بهِ . ثمَّ استطعتُ أنْ أجريَ بهِ فوقَ الثلجِ بعدَ ذلكَ .

صعدتُ إلى قمّةِ التلِّ المعروفِ ، ونظرتُ إلى وادي آلِ دون ، فرأيتُ الثلجَ يغطّي كلَّ شيءٍ . عندئذٍ أخذتُ أفكّرُ في لورنا وفي أنّها قدْ تكونُ حبيسةَ الدارِ ، تقاسي من الوحدةِ والبردِ .

وعزمتُ على زيارتِها في دارِها ، خاصّةً إنّني كنتُ في مأمنٍ حينئذٍ من آلِ دون الذين لنْ يغادروا منازلَهُمْ في مثلِ ذلكَ الجوِّ القارسِ . وشرعتُ في اختراقِ الثلوجِ متّجهًا إلى بيتِها .

قرعتُ بابَها ، وناديتُ .

تساءلتْ جويني : « مَنْ بالبابِ ؟ »

أجبتُ : « جون رد ! » فقالتْ جويني : « ضعْ إصبعَكَ في ثقبِ البابِ لأرى الخاتمَ ، وإذا كنتَ أحدًا غيرَ جون رد فسوفَ أقطعُ إصبعَكَ . »

ضحكتُ ، وأريتُها إصبعي ، ففتحتْ لي البابَ . وسألتُها وأنا أسيرُ إلى الداخلِ : « ما معنى هذا يا جويني ؟ »

أجابتْ على الفورِ : « معناهُ أنّنا حبيستا الدارِ ، وأنَّ بطنَيْنا خاويانِ تمامًا . نحنُ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى طعامٍ ، فالجوعُ يقرصُني حتّى إنّني أريدُ الآنَ أنْ آكلَكَ ! »

أخرجتُ قطعةً كبيرةً من الخبزِ وناولتُها إيّاها ، فالتهمتْها مثلَ حيوانٍ نهمٍ .

توجّهتُ إلى لورنا ، وكانتْ مستلقيةً فوقَ مقعدِها مغمضةَ العينَيْنِ . وقدّمتُ لها خبزًا وماءً ، ففتحتْ عينَيْها وبدأتْ تأكلُ . ولمْ تلبثْ أنْ قالتْ : « لمْ أكنْ أتوقّعُ أنْ أراكَ ثانيةً كنتُ أترقّبُ الموتَ في كلِّ لحظةٍ ، وكنتُ أرجّحُ أنّني سوفَ أموتُ دونَ أنْ تدريَ بذلكَ .. لقدِ احتجزَنا كارفر دون ، وأقسمَ ألّا يدعَني أغادرُ المنزلَ إلّا إذا تزوّجتُهُ . »

كانَ معي مزيدٌ من الطعامِ ، فقدّمتُهُ لهما ورحتُ أتحدّثُ على حينَ كانتْ لورنا وجويني تأكلانِ . وقالتْ لورنا بعدَ أنْ فرغتْ من تناولِ الطعامِ :

« تَعالَ إلى النّافِذةِ وَشاهِدْهُمْ يُشْعِلون النّارَ الكُبْرى . لَقَدْ نَصَّبوا كارْفَر زَعيمًا وَقائِدًا ، وَسَوْفَ يُقيمونَ وَليمةً كَبيرةً تَكْريمًا لَهُ »

وما إنْ عَلِمْتُ بِنَبَإِ الاحْتِفالِ الضَّخْمِ ، حَتَّى أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في نَقْلِ لُورْنا إلى مَنْزِلي في تِلْكَ اللَّيْلةِ : فَلَنْ تَكونَ مُغادَرةُ الوادي ، في مِثْلِ هٰذا الوَقْتِ ، مَحْفوفةً بِالمخاطِرِ ، إذْ سَيَكونُ آلُ دُون مَشْغولينَ بِطَعامِهِمْ وَشَرابِهِمْ وَلَهْوِهِمْ عَنْ مُراقَبَتِنا أَوْ رُؤْيَتِنا .

قُلْتُ لِلُورْنا : « سَوْفَ أَذْهَبُ الآنَ ، ثُمَّ أَعودُ بَعْدَ ساعَتَيْنِ . احْزِمي مَلابِسَكِ كُلَّها ، وَاسْتَعِدّي لِلرَّحيلِ مَعي . سَأَعودُ لِآخُذَكِ إلى مَنْزِلي . »

الفَصْلُ الثّالِثُ وَالعِشْرونَ

لُورْنا في بَيْتي

ذهبْتُ إلى البَيْتِ بِأَقْصى سُرْعةٍ مُمْكِنةٍ ، وَطَلَبْتُ إلى أُمّي أَنْ تُدَفِّئَ حُجُراتِ [illegible] . وَأَعْطَتْني أُخْتي ليزي مِعْطَفًا صوفِيًّا بَديعًا لِتَرْتَدِيَهُ لُورْنا . ثُمَّ قَفَلْتُ راجِعًا إلى الوادي عَبْرَ الثُّلوجِ المُتَراكِمةِ .

وَصَلْتُ إلى مَنْزِلِ لُورْنا وَنادَيْتُ ، وَلٰكِنْ لَمْ أَسْمَعْ جَوابًا ، فَاقْتَحَمْتُ البابَ ، وَرَأَيْتُ مَنْظَرًا مُرَوِّعًا .

كانَتْ جُويني كارْفاكْس وَسْطَ الحُجْرةِ تُمْسِكُ بِساقَيْ رَجُلٍ . وَكانَ هُناكَ رَجُلٌ آخَرُ يُحاوِلُ أَنْ يَنْزِعَ لُورْنا عَنْ كُرْسِيِّها . أَمْسَكْتُ بِالرَّجُلِ الأَوَّلِ وَكانَ مِنْ آلِ دُون ، وَقَذَفْتُ بِهِ مِنَ النّافِذةِ ، ثُمَّ حَمَلْتُ الثّانِيَ خارِجَ المَنْزِلِ ، وَكانَ اللّورْد ويشيهالس ، وَقَذَفْتُ بِهِ وَسْطَ الثُّلوجِ . وَاصْطَحَبْتُ لُورْنا وَجُويني مَعَهُ إلى الخارِجِ وَسِرْنا وَسْطَ الثُّلوجِ إلى أَنْ وَصَلْنا مَنْزِلي .

خَرَجَتْ أُمّي لاسْتِقْبالِ لُورْنا وَاحْتَضَنَتْها ، وَقَبَّلَتْها ، ثُمَّ رافَقَتْها إلى الدّاخِلِ ، حَيْثُ أَجْلَسَتْها عَلى كُرْسِيٍّ وَثيرٍ مُريحٍ . وَأَغْمَضَتْ لُورْنا عَيْنَيْها ، غَيْرَ أَنَّ يَدَها الصَّغيرةَ الرَّقيقةَ تَسَلَّلَتْ لِتُمْسِكَ بِيَدي .

الفَصْلُ ٱلرَّابِعُ وَٱلعِشْرونَ

العِقْدُ

بَدَأَ ٱلثَّلْجُ في ٱلذَّوَبانِ ، وَأَصْبَحَ ٱلسَّفَرُ مُمْكِنًا . فَجاءَ تُوم فاحِس لِرُؤْيَةِ آني .

أَخْبَرْتُهُ بِقِصَّةِ لُورْنا ، وَكَيْفَ أَنَّنِي ٱلْتَقَيْتُ بِسِيرِ إِنْسُور وَهُوَ عَلى فِراشِ ٱلمَوْتِ . ثُمَّ أَرَيْتُهُ ٱلعِقْدَ قائِلًا : « إِنَّهُ عِقْدٌ زُجاجِيٌّ .. شَيْءٌ شَبيهٌ بِٱللُّعْبَةِ »

فَصاحَ في دَهْشَةٍ : « لُعْبَةٌ ! إِنَّهُ مَصْنوعٌ مِنْ أَغْلى وَأَنْدَرِ أَنْواعِ ٱلماسِ ، وَثَمَنُهُ يَفوقُ ثَمَنَ مَزْرَعَتِكَ بِأَكْمَلِها . »

دَخَلَتْ لُورْنا ٱلحُجْرَةَ ، فَتَناوَلَ تُوم فاحِس ٱلعِقْدَ قائِلًا لَها : « كَمْ تَأْخُذينَ ثَمَنًا لِهٰذا ٱلعِقْدِ ؟ أَتَكْفيكِ خَمْسَةُ جُنَيْهاتٍ ؟ »

أَجابَتْ لُورْنا : « إِنَّهُ عِقْدٌ بَديعٌ حَقًّا ، وَلٰكِنَّ هٰذا ثَمَنٌ كَبيرٌ .. إِنَّني لا أَرْغَبُ في بَيْعِهِ ، فَقَدْ وَرِثْتُهُ عَنْ والِدَتي . »

أَضافَ تُوم قائِلًا : « لَوْ أَنَّ هٰذا ٱلعِقْدَ بيعَ في لَنْدَن لَحَصَلْتِ عَلى مِئَةِ أَلْفِ جُنَيْهٍ ثَمَنًا لَهُ . »

قَدَّمَتْ لُورْنا ٱلعِقْدَ لِأُمّي قائِلَةً : « هٰذا يا أُمّاهُ ٱلعَزيزةُ هَدِيَّةٌ مُتَواضِعَةٌ مِنّي إِلَيْكِ ، إِذْ لا شَيْءَ في ٱلدُّنْيا يُساوي ما أَسْبَغْتِ عَلَيَّ مِنْ حُبٍّ وَحَنانٍ »

شَكَرَتْ أُمّي لُورْنا وَٱعْتَذَرَتْ لَها في رِقَّةٍ عَنْ قَبولِ ٱلعِقْدِ ، فَناوَلَتْني لُورْنا ... ، وَطَلَبَتْ أَنْ أَحْتَفِظَ لَها بِهِ .

في ٱللَّيْلَةِ ٱلتّالِيَةِ جاءَنا جيرِيمي سْتِكِلْز ، وَأَخْبَرَنا أَنَّ ثَلاثَةً مِنْ آلِ دُون قَدْ حاوَلوا قَتْلَهُ ، وَأَنَّ واحِدًا مِنْ جُنودِهِ أُصيبَ .

كُنْتُ أُرَجِّحُ أَنَّ آلَ دُون لَنْ يُهاجِمونا ، في مُحاوَلَةٍ لِاسْتِعادَةِ لُورْنا ما دامَتِ ٱلأَرْضُ مُغَطّاةً بِمِياهِ ٱلثُّلوجِ ٱلذّائِبَةِ . وَلٰكِنَّني كُنْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّهُمْ ... يَأْتونَ ، بِمُجَرَّدِ أَنْ تَجِفَّ ٱلأَرْضُ . وَأَسِفْتُ لِتَرْكي تُوم فاحِس يَرْحَلُ ، فَقَدْ كانَ زَميلًا نافِعًا ، وَمُقاتِلًا قَديرًا .

تَحَدَّثْتُ إِلى جيرِيمي في شَأْنِ ٱلمَعْرَكَةِ ٱلقادِمَةِ ضِدَّ آلِ دُون ، فَنَصَحَني بِأَنْ أَحْشُدَ أَكْبَرَ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنَ ٱلرِّجالِ لِلِاشْتِراكِ في هٰذِهِ ٱلمَعْرَكَةِ . وَكُنْتُ قَدِ ٱدَّخَرْتُ كَمِّيَّةً هائِلَةً مِنَ ٱلطَّعامِ .

في ٱليَوْمِ ٱلتّالي خَرَجْتُ عَلى جَوادي لِاسْتِدْعاءِ جُنودِ سْتِكِلْز وَلٰكِنَّني لَمْ أَجِدْ إِلّا أَرْبَعَةً مِنْهُمْ فَقَطْ . وَطَلَبْتُ إِلَيْهِمُ ٱلحُضورَ إِلى ٱلمَزْرَعَةِ في أَقْصَرِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ ، فَوافَقوا عَلى ذٰلِكَ ، كَما وَعَدوا بِإِحْضارِ رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُمْ مِنَ ٱلحُرّاسِ ٱلرّابِضينَ في مَوْضِعٍ قَريبٍ مِنّا .

عُدْتُ بِسُرْعَةٍ إِلى ٱلمَنْزِلِ . وَكانَ ذٰلِكَ مِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ ، فَلَقَدْ وَقَعَ في غِيابي حادِثٌ خَطِرٌ : كانَتْ لُورْنا قَدْ خَرَجَتْ إِلى حَديقَةِ ٱلمَنْزِلِ لِتَسْتَمْتِعَ بِمُشاهَدَةِ ٱلأَزْهارِ . وَفوجِئَتْ وَهِيَ تَعودُ إِلى ٱلمَنْزِلِ ، بِعَيْنَيْنِ تَخْتَلِسانِ ٱلنَّظَرَ

إِلَيْها مِنْ خَلْفِ ٱلأَشْجارِ – كانَتا عَيْنَي كارْفَر دُون !

تَسَمَّرَتْ فِي مَكانِها مِنَ ٱلرُّعْبِ . وَقَهْقَهَ كارْفَر ، ثُمَّ رَفَعَ بُنْدُقِيَّتَهُ وَصَوَّبَها إِلى قَلْبِها . وَكانَتْ لا تَزالُ غَيْرَ قادِرَةٍ عَلى ٱلتَّحَرُّكِ أَوِ ٱلنُّطْقِ . لٰكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَفَضَ ٱلبُنْدُقِيَّةَ ناحِيَةَ ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ أَطْلَقَها . وَتَطايَرَ ٱلتُّرابُ وَغَمَرَ لُورْنا . وَسَقَطَتْ عَلى ٱلأَرْضِ باكِيَةً . عِنْدَئِذٍ سارَ كارْفَر إِلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ ٱلصَّغيرِ ٱلَّذي يَجْري عِنْدَ نِهايَةِ حَديقَتِنا ، وَصاحَ قائِلًا : « أَنا لَمْ أَقْتُلْكِ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ لِأَنَّني لَمْ أَشَأْ قَتْلَكِ ، كَما أَنَّني لا أُقْدِمُ أَبَدًا عَلى ٱلقَتْلِ وَأَنا في سَوْرَةِ ٱلغَضَبِ . غَيْرَ أَنَّني سَوْفَ أَقْتُلُكِ وَأَقْتُلُ جُون رِد أَيْضًا ، إِذا لَمْ تَعودي غَدًا إِلى وادي آلِ دُون ، حامِلَةً مَعَكِ كُلَّ ما أَخَذْتِ مِنْ مَنْزِلِكِ هُناكَ . » ثُمَّ ٱسْتَدارَ وَمَشى بَعيدًا إِلى أَنِ ٱخْتَفى عَنِ ٱلأَنْظارِ .

حَضَرَ جُنودُ سْتِكِلْز ٱلأَرْبَعَةُ ، كَما حَضَرَ ٱلحارِسانِ . وَجَمَعْنا مَزيدًا مِنَ ٱلمُؤَنِ ، وَتَهَيَّأْنا لِلْمَعْرَكَةِ .

الفَصْلُ ٱلخامِسُ وَٱلعِشْرونَ

مَعْرَكَةٌ فِي فِناءِ ٱلمَزْرَعَةِ

كُنّا نَتَوَقَّعُ أَنْ يَهْجُمَ آلُ دُون عَلى ٱلمَنْزِلِ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ . فَأَرْسَلْنا نِساءَ ٱلبَيْتِ لِلنَّوْمِ مُبَكِّراتٍ عَنْ مَوْعِدِهِنَّ ٱلمُعْتادِ ، فيما عَدا جُويني وَخادِمَتَنا ٱلعَجوزَ بِيتّي . وَكانَ ٱلمَطَرُ قَدْ سَقَطَ غَزيرًا في ٱللَّيْلَةِ ٱلسّابِقَةِ ، وَغَطَّتْ مِياهُهُ ٱلأَرْضَ في وادي آلِ دُون – وَلَمْ نَكُنْ نَتَوَقَّعُ أَنْ يَهْجُموا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَمانِيَةِ مُقاتِلِينَ أَوْ عَشَرَةٍ . كانَ لَدَيْنا في مُواجَهَتِهِمْ ثَمانِيَةُ رِجالٍ مُسَلَّحينَ بِٱلبَنادِقِ وَأَرْبَعَةٌ آخَرونَ يَحْمِلونَ ٱلعِصِيَّ وَٱلسَّكاكينَ فَقَطْ .

كانَتْ أُمْنِيَّتي ٱلكُبْرى أَنْ أَلْتَقِيَ بِكارْفَر دُون لِأُقاتِلَهُ بِنَفْسي . وَكُنْتُ مِنَ ٱلضَّخامَةِ وَٱلقُوَّةِ بِحَيْثُ أَسْتَطيعُ حَمْلَ أَيِّ رَجُلٍ وَٱلإِطاحَةَ بِهِ بَعيدًا . غَيْرَ أَنَّ كارْفَر كانَ مِثْلي في ٱلضَّخامَةِ وَٱلقُوَّةِ ، وَكانَ مُقاتِلًا عَنيفًا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَصَدّى لي ، وَيُديرَ ٱلمَعْرَكَةَ ضِدّي بِمَهارَةٍ . تَسَلَّقَتْ جُويني إِحْدى ٱلأَشْجارِ لِرَصْدِ تَحَرُّكاتِ آلِ دُون ، وَمَكَثْتُ أَنا أَنْتَظِرُ . وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ عادَتْ جُويني بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلوَقْتِ لِتُخْبِرَني أَنَّ عَشَرَةَ رِجالٍ قَدْ عَبَروا ٱلنَّهْرَ ، وَأَنَّهُمْ في طَريقِهِمْ إِلَيْنا ، فَبَعَثْتُ بِٱلنَّبَإِ إِلى جيريمي سْتِكِلْز وَرِجالِهِ لِيَكونوا عَلى ٱسْتِعْدادٍ مَعي لِمُلاقاتِهِمْ .

وَصَلَ آلُ دُون إِلى فِناءِ ٱلمَزْرَعَةِ ، وَكانَ جُنودُنا يَكْمُنونَ لَهُمْ في سِتْرٍ مِنْ ظِلالِ ٱلمَنْزِلِ .

وَقالَ كارْفَر دُون مُخاطِبًا ٱثْنَيْنِ مِنْ رِجالِهِ : « ٱذْهَبا أَنْتُما ، وَأَشْعِلا ٱلنّارَ في أَكْوامِ ٱلتِّبْنِ ، حَتّى نَتَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِمْ عَلى ضَوْءِ ٱللَّهَبِ . » ثُمَّ قالَ لِلْآخَرينَ : « حَذارِ مِنْ أَنْ يُصيبَ أَحَدُكُمْ لُورْنا بِأَذًى ، إِذْ لَنْ أَتَرَدَّدَ حينَئِذٍ في

ضده ... لورنا في حمايتي أنا ، وسوف تُصبحُ زوجتي عمَّا قريب . »
كان من السَّهْلِ حينئذٍ أن أطلقَ الرَّصاصَ على كارڤر ، ولكنَّ يديَّ لم تقويا على ذلك ، فلم يسبق لي أن قتلتُ إنسانًا ، وكنتُ أكرهُ أن أكون قاتلًا .
اقترب منِّي رجلانِ من آلِ دون يحملانِ أغصانًا مشتعلةً لإضرامِ النَّارِ في أكوامِ التِّبنِ . ولم يُبصراني بسببِ الدُّخانِ المتصاعدِ من هذهِ الأغصانِ .
فقفزتُ بسرعةٍ خاطفةٍ على أحدِ الرَّجلينِ ، وكسرتُ ذراعهُ ، فسقط الغصنُ من يده ، وأخذ يصرخُ من الألمِ وتوقَّفَ الثَّاني ، فالتقطتُ الغصنَ المشتعلَ وقذفتُ به في وجههِ . وقفزَ الرَّجلُ نحوي فأمسكتُ به في عنفٍ شديدٍ وحطَّمتُ عظمةَ كتفه ، وألقيتُ به فوقَ زميلِه .
وهنا أطلق جنودُنا النَّار ، فأحدث ذلك دويًّا شديدًا ، وسقط اثنانِ من آلِ دون ، وتوقَّفَ زحفُ الآخرينَ . عندئذٍ تقدَّمتُ عبر فِناءِ المزرعةِ نحو كارڤر وقبضتُ على لحيته قائلًا :
« أتدعو نفسك رجلًا ؟ » وحاول أن يصوِّبَ بندقيَّتهُ إلى صدري ، غير أنِّي هويتُ بضربةٍ خاطفةٍ على يدِهِ فسقطَ سلاحُهُ على الأرضِ ، ثُمَّ ضغطتُ على ذراعه بشدَّةٍ ، وأنا أصيحُ في وجهه : « والآن خُذْ حذرَكَ منِّي يا كارڤر ! أظننتَ أنِّي أضعفُ منك ، فأنت ساذجٌ ، بل وأبلهُ . قد لا أستطيعُ أن أدانيك في الخداعِ والمكرِ ، ولكنِّي لا أقلُّ عنكَ قوَّةً . ولسوف أثبتُ لكَ ذلك بتمريغك الآن في التُّراب ! »
دفعتُهُ بعنفٍ إلى الوراءِ ، فوقع على ظهره . وما إن رأى سائرُ الرِّجالِ ... هم صريع الأرض ، حتَّى لاذوا بالفرارِ تاركين لنا خيولَهُم وجُثَّتي القتيلَينِ اللَّذين صرعهما جنودُنا .



الفصلُ السادسُ والعشرون

زيارةٌ مِنَ المُستشارِ

عقب تِلْكَ المَعْرَكةِ بوقْتٍ قصيرٍ ، لحِقَ بِنا مَزيدٌ مِنَ الجُنودِ ، فلَمْ نَعُدْ نَخْشى هُجومًا آخرَ قَدْ يَشُنُّهُ آلُ دُون .

دات مَساءٍ ، بَعْدَ عَوْدَتي مِنْ تَفَقُّدِ المَزْرَعةِ عَلى ظَهْرِ الجوادِ ، أقْبَلَتْ ليري لِمُلاقاتي عِنْدَ بابِ المَنْزِلِ قائِلةً : « لا تَدْخُلْ حُجْرةَ أُمّي الآنَ ، فَعِنْدي ما سَوْفَ أقولُهُ لَكَ . »

سألْتُها : « ما الأمْرُ ؟ هَلْ أصابَ لورْنا مَكْروهٌ ؟ » فَأجابَتْ : « كَلّا ، غَيْرَ أنَّهُ جاءَنا ضَيْفٌ مَهيبٌ ذو شَعْرٍ أشْيَبَ ولِحْيةٍ طَويلةٍ بَيْضاءَ ، وأظُنُّ أنَّهُ مِنْ آلِ دُون . »

قُلْتُ : « إنَّهُ المُسْتَشارُ ! »

دهشْتُ وعُدْتُ بِلورْنا ، ودَخلْنا مَعًا حُجْرةَ أُمّي ، وكانَتْ واقِفةً عِنْدَ البابِ تَتَحدَّثُ إلى المُسْتَشارِ .

بسطَ المُسْتَشارُ يَدَيْهِ لِلورْنا قائِلًا : « إنَّكِ تَبْدينَ بِخَيْرٍ يا ابْنَتي العَزيزةَ ! هَيّا قَبّلي عَمَّكِ . »

أجابَتْ : « لا أرْغَبُ في تَقْبيلِكَ ، فَرائِحةُ الدُّخانِ تَفوحُ مِنْكَ . »
وصَمَتَ المُسْتَشارُ بُرْهةً ، ثُمَّ قالَ : « إذًا فأنْتَ جون رِد .. جون رِد ،

المُقاتِلُ الشُّجاعُ الَّذي يُريدُ الزَّواجَ بِابْنَتِنا لورْنا . حَسَنًا ، أعْتَقِدُ أنَّكُما سَتكونانِ سَعيدَيْنِ مَعًا بِهٰذا الزَّواجِ ، فَسَيَكونُ لَدَيْكُما مَوْضوعٌ مُشْتَرَكٌ تَتَحدَّثانِ فيهِ دائِمًا : ألا وَهُوَ ما فَعَلَ والِدُ كُلٍّ مِنْكُما بِالآخَرِ ! »

قُلْتُ : « لَسْتُ أفْهَمُ ما تَعْنيهِ بِهٰذا الكَلامِ . »

قالَ الرَّجُلُ في نَبْرةٍ حاسِمةٍ : « أعْني أنَّ والِدَ لورْنا قَتَلَ أباكَ ، وأنَّ أباكَ قَتَلَ والِدَ لورْنا . »

كانَ ذٰلِكَ أفْظَعَ شَيْءٍ يُمْكِنُ أنْ أسْمَعَهُ .

قُلْتُ في ذُهولٍ : « ولٰكِنَّكَ تَعْرِفُ أنَّ سِير إنْسُور وافَقَ عَلى زَواجي بِلورْنا وبارَكَهُ ... إنَّنا مُتَحابّانِ ، وسَنَظَلُّ مُتَحابَّيْنِ إلى الأبَدِ . »

صاحَتْ لورْنا قائِلةً : « أنْتَ عَلى حَقٍّ ياجون .. أنا لا أُصَدِّقُ ما قالَهُ المُسْتَشارُ عَنْ أبَوَيْنا ... إنَّنا مُتَحابّانِ ، ولَنْ يَنالَ شَيْءٌ في الدُّنْيا مِنْ حُبِّنا ، أوْ يَحولَ دونَ إتْمامِ زَواجِنا . »

باتَ المُسْتَشارُ تِلْكَ اللَّيْلةَ في بَيْتِنا . وفي الصَّباحِ ، أخْبَرَتْني لورْنا أنَّها شَعَرَتْ أثْناءَ اللَّيْلِ بِحَرَكةٍ غَريبةٍ في المَنْزِلِ ، وكَأنَّ شَخْصًا يَجوسُ في أرْجائِهِ بَحْثًا عَنْ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ .

خَرَجَتْ آني إلى قاعةِ الألْبانِ قُبَيْلَ الضُّحى ، فَتَبِعَها المُسْتَشارُ . وتَطَلَّعَ الرَّجُلُ إلى الآنِيةِ المَليئةِ بِالحَليبِ . ثُمَّ قالَ لآني : « أتَعْرِفينَ أنَّهُ لَوْ مَرَرْتِ بِعِقْدِ

زُجاجيٌّ عَلى صَفْحَةِ هٰذا اللَّبَنِ ، فَسَوْفَ تَتَكَوَّنُ القِشْدَةُ عَلى سَطْحِهِ بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ ؟ »

أَجابَتْ آني بِدَهْشَةٍ : « هٰذِهِ مَعْلومَةٌ جَديدَةٌ لَمْ أَسْمَعْ بِها مِنْ قَبْلُ ! » عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَ المُسْتَشارُ يَسْأَلُها : « هَلْ لَدَيْكِ عِقْدٌ زُجاجيٌّ ؟ » فَهَتَفَتْ آني ، وَقَدْ تَمَلَّكَها الحَماسُ لِعَمَلِ التَّجْرِبَةِ . « لورْنا تَمْتَلِكُ واحِدًا ، وَأَنا أَعْرِفُ مَكانَهُ . كانَ جون يَحْتَفِظُ بِهِ يَوْمًا ما . وَلٰكِنَّهُ في حُجْرَةِ لورْنا الآنَ .. سَأَذْهَبُ لِإِحْضارِهِ . »

جَرَتْ إِلى المَنْزِلِ ، ثُمَّ عادَتْ بِالعِقْدِ . وَطافَ بِهِ المُسْتَشارُ عَلى سَطْحِ اللَّبَنِ – وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَبَّأَهُ تَحْتَ الوِعاءِ قائِلًا : « أَتْرُكيهِ هُنا لِمُدَّةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَلا تُخْبِري أَحَدًا بِمَكانِهِ . »

غادَرَتْ آني قاعَةَ الأَلْبانِ ، وَبَعْدَها بِلَحَظاتٍ غادَرَها المُسْتَشارُ كَذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ في جَيْبِهِ العِقْدَ الثَّمينَ !

الفَصْلُ السّابِعُ وَالعِشْرونَ

قِصَّةُ جيريمي

في مَساءِ اليَوْمِ ذاتِهِ ، عادَ جيريمي ستيكلز لِيُخْبِرَني أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أُعِدَّ لِلْمَعْرَكَةِ الكُبْرى ضِدَّ آل دون ، فَأَخْبَرْتُهُ بِدَوْري عَنْ سَرِقَةِ المُسْتَشارِ لِلْعِقْدِ .

وَرَوى لي جيريمي آخِرَ ما عَرَفَهُ مِنْ جَرائِمِ آلِ دون ، فَقالَ : « كُنْتُ في بَلْدَةِ واتشِت مُنْذُ أَيّامٍ قَليلَةٍ . وَالْتَقَيْتُ هُناكَ بِسَيِّدَةٍ إيطالِيَّةٍ تُدْعى بيبيتّا ، وَكانَتْ تَعْمَلُ خادِمَةً لَدى عائِلَةٍ إيطالِيَّةٍ تَقْطُنُ إِحْدى مُدُنِ إيطالْيا . وَجاءَ إِلى المَدينَةِ لورْد إِنْجليزيٌّ وَتَزَوَّجَ ابْنَةَ هٰذِهِ العائِلَةِ ثُمَّ اصْطَحَبَ اللّورْد زَوْجَتَهُ وَمَعَهُما الخادِمَةُ بيبيتّا إِلى بَيْتِهِ . وَكانَ اللّورْد كَثيرَ التَّحَدُّثِ عَنْ عائِلَتِهِ في إِنْجلْتِرا ، وَرَوى كَيْفَ فَقَدَ أَحَدُ أَفْرادِ العائِلَةِ كُلَّ أَراضيهِ وَأَصْبَحَ مُجْرِمًا خارِجًا عَلى القانونِ . وَقَدْ قُتِلَ اللّورْد ذاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَجولُ عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ .

« رَحَلَتْ زَوْجَتُهُ الإيطالِيَّةُ ، وَمَعَها ابْنَتُها الصَّغيرَةُ ، وَخادِمَتُها بيبيتّا إِلى إِنْجلْتِرا وَوَصَلْنَ إِلى هٰذِهِ المُقاطَعَةِ حَيْثُ اسْتَأْجَرْنَ عَرَبَةً تُقِلُّهُنَّ إِلى مَنْزِلِهِنَّ الَّذي يَقَعُ في مَكانٍ ما قُرْبَ مَزْرَعَتِكَ . وَحَذَّرَهُنَّ السّائِقُ مِنْ أَنَّ آل دون قَدْ يَقْطَعونَ عَلَيْهِنَّ الطَّريقَ ، وَلٰكِنَّ السَّيِّدَةَ قالَتْ إِنَّها لا تَخْشى ذٰلِكَ ، لِأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّ آل دون لا يُؤْذونَ السَّيِّداتِ وَالأَطْفالَ .

« مَرَّتِ العَرَبَةُ بِبَلْدَةِ واتشِت وَاقْتَرَبَتْ مِنْ شاطِئِ البَحْرِ . وَلاحَ في الأُفُقِ رِجالٌ عَلى ظُهورِ الجِيادِ يَتَّجِهونَ نَحْوَ العَرَبَةِ ، وَحاوَلَ السّائِقُ أَنْ يُسْرِعَ

لِيَتمكَّنَ مِنَ ٱلهَرَب . وَلٰكِنَّ ٱلعَجلاتِ ٱنغرزَتْ في ٱلرِّمالِ ٱلرَّخوة .

« وَما إنْ ظهرَ ٱلرِّجالُ عَنْ قُرْبٍ حَتَّى صاحَتِ ٱلسَّيِّدةُ قائِلةً إنَّها تَعْرِفُ واحِدًا مِنْهُمْ وَإنَّهُ عَدُوٌّ قَديمٌ لِأُسْرَتِها .

« وكانَتِ ٱلخادِمةُ بيبيتّا تَحْمِلُ عُلْبةَ ٱلجَواهِرِ ٱلخاصَّةِ بِسَيِّدَتِها ، وَفي داخِلِها عِقْدٌ مِنَ ٱلماسِ ٱلثَّمينِ . وَلَفَّتِ ٱلعِقْدَ حَوْلَ عُنُقِ ٱلابْنةِ ٱلصَّغيرةِ . وهاجمَ ٱلرِّجالُ ٱلعَرَبةَ ، وَكانوا مِنْ آلِ دُون ، فٱنحَدرتْ نَحْوَ ٱلبَحْرِ . وارْتَمتْ بيبيتّا عَلى ٱلرِّمالِ فاقِدةَ ٱلوَعْيِ . وَعِنْدَما أفاقَتْ كانَ ٱلرِّجالُ قَدِ ٱختَفَوا حامِلِينَ مَعَهُمُ ٱلفَتاةَ ٱلصَّغيرةَ . أمّا ٱلسَّيِّدةُ ٱلأُمُّ ، فَقَدْ نُقِلَتْ إلى بَلْدةِ واتْشِت حَيْثُ ماتَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ بِقَليلٍ .

« وَبَقِيَتْ بيبيتّا في واتْشِت بِمُفْرَدِها بِلا نُقودٍ ، فَقَدْ نَهَبَ آلُ دُون كُلَّ شَيْءٍ ، كما ٱحْتَجَزَتِ ٱلحُكومةُ أراضيَ سَيِّدَتِها رَيْثَما تَجِدُ وريثَتَها ٱلشَّرْعِيَّةَ ، إذْ إنَّ ٱلفَتاةَ ٱلمَخْطوفةَ هِيَ ٱلوَريثةُ ٱلشَّرْعِيَّةُ ٱلوَحيدةُ لِكُلِّ تِلْكَ ٱلأراضي . »

حينَئِذٍ تَذَكَّرْتُ ذٰلِكَ ٱليَوْمَ ٱلَّذي كُنْتُ عائِدًا فيهِ مِنَ ٱلمَدْرَسةِ إلى قَرْيَتي بَعْدَ مَوْتِ والِدي ، وَتَذَكَّرْتُ ٱلخادِمةَ ٱلإيطالِيَّةَ ٱلَّتي طَلَبَتْ مِنّي كوبَ ماءٍ لِسَيِّدَتِها ، كَما تَذَكَّرْتُ كَيْفَ مَرَرْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلعَرَبةِ ٱلَّتي كانَتْ فيها ٱلسَّيِّدةُ ، وَإلى جانِبِها فَتاةٌ صَغيرةٌ جَميلةٌ وَكَيْفَ رَأَيْتُ ، فيما بَعْدُ ، رِجالًا راكِبينَ ٱلجِيادَ وَيَحْمِلُ أَحَدُهُمْ فَتاةً صَغيرةً عَلى جَوادِهِ !

إنَّ لُورْنا إذًا تَنْتَمي لِأُسْرةِ لُورْداتٍ عَظيمةٍ ، كَما تَمْتَلِكُ أراضيَ شاسِعةً

وَقَدْ لا أَسْتَطيعُ ٱلزَّواجَ بِها أَبَدًا . غَيْرَ أَنّي خَرَجْتُ مِنْ قِصَّةِ جيرِمي بِشَيْءٍ آخَرَ بالِغِ ٱلأَهَمِّيَّةِ : لَيْسَ صَحيحًا أَنَّ والِدَ لُورْنا هُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي قَتَلَ والِدي .

اِمْتَطَيْتُ جَوادي وَسافَرْتُ إلى واتْشِت ، حَيْثُ ٱلْتَقَيْتُ بيبيتّا . وَأَرَيْتُها ٱلخاتَمَ ٱلعَريقَ ٱلَّذي أَعْطاهُ لي سِيرِ إنْسُور . وَعَرَفَتْ بيبيتّا ٱلخاتَمَ في ٱلحالِ ، فَقَدْ كانَ خاتَمَ سَيِّدَتِها ٱلإيطالِيَّةِ .

عِنْدَئِذٍ أَيْقَنْتُ أَنَّ لُورْنا لا تَنْتَمي لِآلِ دُون . إنَّ ٱسْمَها ٱلحَقيقِيَّ هُوَ ديوجال ، فَهِيَ ٱبْنةُ لورْد ديوجال . كَما ٱكْتَشَفْتُ كَذٰلِكَ خُطَّةَ آلِ دُون ٱلجَهَنَّمِيَّةَ : فَقَدْ كانوا يُريدونَ أَنْ يَتَزَوَّجَ كارْفِر لُورْنا حَتَّى يَتَمَكَّنوا مِنَ ٱلاسْتيلاءِ عَلى كُلِّ أَراضيها !



الفصلُ الثّامِنُ وَالعِشْرونَ

مَعْرَكةُ الوادي الأُولى

تهيّأتْ ثَلاثُ مَجْموعاتٍ مِنَ المُقاتِلينَ لِشَنِّ الهُجومِ عَلى وادي آلِ دُون :

الأُولى سِتّونَ رَجُلًا مِنْ إقْليمِ سومِرْسِت ، يَرْتَدونَ مَلابِسَ صَفْراءَ .

الثّانِيةُ سِتّونَ رَجُلًا مِنْ إقليمِ ديفون ، يَرْتَدونَ مَلابِسَ حَمْراءَ .

الثّالثةُ خَمْسةٌ وَثَلاثونَ فارِسًا مِنْ جَيْشِ المَلِكِ .

وَكانَتْ لَدَيْنا ثَلاثةُ مَدافِعَ تَجُرُّها الجِيادُ : مِدْفَعٌ لِكُلِّ مَجْموعةٍ . وَبَدَأْنا المَسيرةَ مَعًا نَحْوَ الوادي .

كانَتِ الخُطَّةُ تَقْضي بِأَنْ يُرابِضَ رِجالُ سومِرْسِت في التِّلالِ الواقِعةِ شَرْقيَّ الوادي ، حَتّى يَصِلَ رِجالُ ديفون إلى المُرْتَفَعاتِ الَّتي تَحُدُّ الواديَ مِنَ الغَرْبِ ، وَأَنْ تُطْلِقَ القُوَّتانِ مَعًا نيرانَها عَلى آلِ دُون مِنَ الشَّرْقِ وَمِنَ الغَرْبِ في آنٍ واحِدٍ ، عَلى حِينِ يَتَقَدَّمُ فُرْسانُ الجَيْشِ – وَعَلى رَأْسِهِمْ جيريمي ستِكِلز وَأَنا – لاقْتِحامِ الوادي عَبْرَ البَوّابةِ . تِلْكَ كانَتْ خُطَّتَنا المَرْسومةَ ، إلّا أَنَّ الأُمورَ لَمْ تَسِرْ كَما خَطَّطْنا لَها .

لَقَدْ بَلَغْنا بَوّابةَ آلِ دُون وَكانَ مِدْفَعُنا مُعَدًّا . وَما إنْ سَمِعْنا دَوِيَّ الرَّصاصِ يَنْطَلِقُ مِنْ ناحِيَتَيِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ ، حَتّى اندَفَعْنا إلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ التَّلِّ لاقْتِحامِ البَوّابةِ بِمِدْفَعِنا . وَاقْتَرَبْنا مِنَ البَوّابةِ ، فَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا هُناكَ غَيْرَ أَنَّ العَدُوَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ فاجَأَنا بِإطْلاقِ النّارِ مِنْ مَكانٍ مَجْهولٍ ، مُسْتَخْدِمًا في ذلِكَ

اثنتي عشرة بندقية ، أو ما يقرب من هذا العدد . وسقط من بيننا بعض الرجال ، ولكن ذلك لم ينل من شجاعة الآخرين . وكنا – أنا وجيريمي – في المقدمة ، ومن ورائنا المدفع تجره الجياد .

وسرعان ما اكتشفنا أن آل دون يتوارون وراء بعض الشجيرات الكثيفة ، فعدونا لملاقاتهم قبل أن يتمكنوا من حشو بنادقهم بالرصاص . وفجأة دوى صوت ارتطام هائل من ورائي ، أعقبه جلبة عالية وصرخات مرعبة من الرجال والجياد – فلقد أسقطت شجرة ضخمة من فوق قمة التل على الجياد والمدفع ، فأصابت اثنين من رجالنا ، وقصمت ظهر أحد الجياد ، وكسرت ساق جواد آخر .

تملكني غضب شديد ، فقد كنت أحب هذين الجوادين حبا جما ، وجريت عائدا إلى مكان الحادث . وتبعني ستة رجال ، من بينهم جيريمي . وأطلق آل دون الرصاص علينا ، فأصابوا بعضا من رجالنا ، غير أنني واصلت السير . وحملت المدفع بين يدي ، واقتحمت به في حصون باب البوابة الخشبي الضخم فتحطم . وانحشر المدفع في فتحة الباب المحطم حتى إنني لم أستطع تخليصه بجذبه إلى الخارج ، ولم أجد أحدا بالقرب مني يسرع إلى معونتي . وتراجعت بضع خطوات إلى الخلف بحثا عن جيريمي ، فوجدته ممددا على الأرض ، ملطخ الوجه بالدماء . وحملته في التو إلى مكان مأمون حيث تم إسعافه .

فوجئت بعد لحظات بغلام من أتباعنا يسرع إلي قائلا : « لقد خسرنا المعركة . إن رجال ديقون ورجال سومرست يتقاتلون .... لقد هزمنا آل دون . »

صنعا عربة من غصون الأشجار لتحمل جرحانا ، واستخدما الجياد التي نجت على قيد الحياة في جرها .

والآن سأخبركم كيف نشب القتال بين فريقي ديقون وسومرست :

كان على رجال ديقون أن يسيروا مسافة طويلة لكي يصلوا إلى موقعهم على الحدود الغربية لوادي آل دون . وكانوا يخشون أن يبدأ رجال سومرست المعركة قبل وصولهم ، فيفخروا ، فيما بعد ، بأنهم قد أحرزوا النصر بمفردهم . فما إن أتوا إلى موقعهم فوق التلال الغربية ، حتى جهزوا مدفعهم ، ثم أطلقوا دون تصويب محدد . وعبرت القذيفة الوادي وأصابت رجال سومرست على الجانب الآخر فقتل واحد منهم وجرح اثنان .

ثارت ثائرة رجال سومرست وظنوا برجال ديقون الظنون ، فردوا عليهم بإطلاق نار مدفعهم ، وأسقطوا منهم خمسة رجال . ونشبت بعد ذلك معركة بين رجال فريقي ديقون وسومرست .

في تلك الأثناء ، خرج آل دون من الطريق السري ، الذي كانت تستخدمه جويني من قبل . وهاجموا رجال سومرست ، أيضا ، فقتلوا أربعة منهم ، واستولوا على مدفعهم .

أما رجال ديقون فقد عادوا إلى مقاطعتهم ، ومعهم مدفعهم يجرون أذيال الخيبة .

وهكذا خسرنا تلك الجولة ضد آل دون .

الفَصْلُ التَّاسِعُ وَالعِشْرونَ

رَحيلُ لُورْنا

كُنْتُ مُسافِرًا لِزِيارةِ بَعْضِ الأَصْدِقاءِ ، وَفوجِئْتُ عِنْدَ عَوْدَتي أَنَّ لُورْنا لَمْ تُسْرِعْ لِلِقائي كَعادَتِها ، عِنْدَ بابِ الحَديقةِ .

سَأَلْتُ أُمّي : « أَيْنَ لُورْنا ؟ » فَلَمْ تُجِبْ .

الْتَفَتُّ إِلى أُخْتي ليزي مُكَرِّرًا نَفْسَ السُّؤالِ .

رَدَّتْ ليزي قائِلَةً : « لَقَدْ ذَهَبَتِ اللَّيْدي لُورْنا ديوجال إِلى لَنْدَن ، وَأَظُنُّ أَنَّها لَنْ تَعودَ ثانِيَةً . »

صِحْتُ : « لَقَدْ رَحَلَتْ لُورْنا .. رَحَلَتْ حَبيبَتي لُورْنا دونَ أَنْ تُوَدِّعَني ! »

أَضافَتْ ليزي قائِلَةً : « لَقَدْ بَكَتْ طَويلًا قَبْلَ رَحيلِها وَتَرَكَتْ لَكَ خِطابًا في غُرْفَتِها . »

جَرَيْتُ إِلى حُجْرةِ لُورْنا ، وَفَتَحْتُ الخِطابَ ، وَقَرَأْتُ السُّطورَ التّالِيَةَ :

« يا أَحَبَّ النّاسِ إِلَيَّ ، أَرْجو أَنْ تُقَدِّرَ سَبَبَ رَحيلي دونَ أَنْ أُوَدِّعَكَ ، فَقَدْ رَفَضَ رِجالُ المَلِكِ الانْتِظارَ .. إِنَّ عَمّي – وَهُوَ أَحَدُ كِبارِ اللُّورْداتِ – يَنْتَظِرُني في بَلْدةِ دَنسْتَر لِأَنَّ المَلِكَ أَمَرَ بِأَنْ أَكونَ تَحْتَ وِصايَةِ هٰذا العَمِّ إِلى أَنْ أَبْلُغَ سِنَّ الحادِيَةِ وَالعِشْرينَ ...

هٰذا حُكْمٌ قاسٍ وَغَيْرُ عادِلٍ . وَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّني لا أُريدُ أَراضِيَّ وَلا نُقودي ، وَإِنَّني أَرْغَبُ في البَقاءِ هُنا فَحَسْبُ ، وَلٰكِنَّهُمْ أَخْبَروني أَنَّني يَجِبُ أَنْ أُطيعَ أَمْرَ المَلِكِ . لَنْ يُبْعِدَني عَنْكَ شَيْءٌ ، أَوْ يَأْخُذَني مِنْكَ أَحَدٌ . »

المُخْلِصَةُ إِلى الأَبَدِ

لُورْنا ديوجال

وَرَغْمَ ما كانَ يَبْدو مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدِ انْتَهى ، فَإِنَّ قَلْبي كانَ يُحَدِّثُني بِأَنَّ النِّهايَةَ سَتَكونُ سَعيدَةً .

الفصلُ الثلاثونَ

لا رسائلَ مِنْ لورْنا

في شهْرِ فبرايرِ منْ ذلكَ العامِ – ١٦٨٥ – تلقَّيْنا نبأَ وفاةِ الملِكِ . وخشيتُ أنْ تندلعَ الاضطراباتُ في بعْضِ أنحاءِ المملكةِ ، إذْ كنتُ أعلمُ أنَّ طائفةً كبيرةً منَ النّاسِ لا تحبُّ الملِكَ الجديدَ جيمس ، وأنَّ بعضَ النّاسِ يتهيَّأونَ للقتالِ ضِدَّهُ بالفعلِ . كما بلغني أنَّ دوق مونموث سوف يأتي عبْرَ البحْرِ قادمًا منْ فرنسا إلى جنوبِ إنجلترا ، وأنَّ كلَّ فلّاحي الجنوبِ سوفَ ينضمّونَ إليْهِ ضِدَّ الملكِ . وكانَ القلقُ يسودُ المملكةَ بأسْرِها ، كما كانَ هناكَ حديثٌ بيْنَ النّاسِ بأنَّ القاضي جيفريز سوْفَ يأتي إلى الجنوبِ ليشنُقَ كلَّ الّذينَ يخطِّطونَ للحرْبِ ضِدَّ الملِكِ الجديدِ .

مرَّتْ عِدَّةُ شهورٍ دونَ أنْ أتلقّى رسالةً واحدةً من لورْنا حتّى إنّي ظننْتُ أنَّها نسِيَتْني تمامًا . ولمْ أكنْ أعرفُ عنوانَها في لندنَ حتّى أكتبَ لها ، غيرَ أنّي كنتُ أتقصّى أخبارَها مِنَ الجنودِ والتُّجّارِ الّذينَ يأتونَ بيْنَ الحينِ والآخرِ مِنْ هناكَ . ولقدْ ذكرَ لي هؤلاءِ أنَّها اشتهرَتْ في العاصمةِ بجمالِها ، وأنَّ عددًا كبيرًا مِنَ اللورداتِ الشُّبّانِ يسْعى للزَّواجِ بها طمعًا في أموالِها .

وما إنْ بلغتْني تلكَ الأنباءُ ، حتّى اكتأبَتْ نفسي ، واغتمَّ فؤادي . وشعرْتُ أنّي فقدْتُ كلَّ آمالي .

الفصلُ الحادي والثلاثونَ

توم فاجس يخرجُ للقتالِ

مرَّتْ بضعةُ أيّامٍ ، عانيْتُ خلالَها منَ اليأسِ والحزنِ . وجاءتْني آني ذاتَ صباحٍ باكيةً ، وسألْتُها عنْ سببِ بكائِها فقالَتْ : « آهٍ ، ياجون . لقدْ رحلَ زوجي توم فاجس ليحاربَ معَ رجالِ الدوق ضِدَّ الملكِ ! يجبُ أنْ تخرجَ بحثًا عنْهُ ، وتعودَ بهِ إلى البيْتِ . » فأجبتُها : « أعِدُكِ بأنْ أحاولَ ذلكَ بأقصى ما في وُسْعي . »

في اليومِ التّالي غادرْتُ البلْدةَ بحثًا عنْ توم . وبعْدَ مسيرةٍ طويلةٍ أتيْتُ إلى بلْدةِ بردجوتر فوجدْتُ جيْشَ الدوق معسكرًا هناكَ . ولمْ يكنْ جيْشًا بالمعنى الحقيقيِّ ، فقدْ كانَ يتألَّفُ مِنْ جماعاتٍ مِنَ الفلّاحينَ الّذينَ لمْ يُدرَّبوا على القتالِ ، أوْ حتّى على إطلاقِ النّارِ .

كنتُ متعبًا جدًّا ، فقصدْتُ فندقًا صغيرًا لأقضيَ فيهِ اللّيلَ . ولمْ تلبثْ صاحبةُ الفندقِ أنْ أيقظَتْني مِنَ النّوْمِ قائلةً : « انهضْ ، لقدْ بدأتِ المعركةُ . » وما إنْ سمعْتُ صوْتَ إطلاقِ النّارِ حتّى انطلقْتُ على جوادي عبْرَ شوارعَ جانبيَّةٍ ضيِّقةٍ إلى خارجِ البلْدةِ ، ثمَّ واصلْتُ السّيْرَ حتّى أتيْتُ منطقةَ المستنقعاتِ . وكانَ الضّبابُ كثيفًا تعذَّرَتْ معَهُ رؤيةُ الطّريقِ .

وصلْتُ قريةً صغيرةً تُسمّى زيلاند ، وعرفْتُ أنَّ رجالَ الملِكِ كانوا يبيتونَ فيها ، وأنَّهمْ غادروها عقِبَ هجومِ رجالِ الدوق عليْهمْ أثناءَ اللّيلِ .

لَقِيتُ هُناكَ شابًّا يَعْرِفُ طُرُقَ المِنْطَقَةِ جَيِّدًا، فَقادَني إلى مُؤَخِّرَةِ جَيْشِ الدُّوقِ. وَكانَتِ السّاعَةُ الرّابِعَةَ صَباحًا حينَ وَصَلْنا أَرْضَ المُسْتَنْقَعاتِ المَكْشوفَةَ. وَما إنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ حَتّى رَأَيْتُ عَلى ضَوْئِها مَشْهَدًا مُرَوِّعًا: رَأَيْتُ رِجالًا فارّينَ مِنَ المَعْرَكَةِ، وَالذُّعْرُ بادٍ في عُيونِهِمْ وَأَجْسادُهُمْ مُلَطَّخَةٌ بِالدَّمِ وَالتُّرابِ – رِجالًا يَعْدونَ في جُنونٍ، لا يُريدونَ إلّا النَّجاةَ مِنَ المَوْتِ. كَما رَأَيْتُ قَتْلى راقِدينَ عَلى الأَرْضِ بِعُيونٍ مَفْتوحَةٍ يُطِلُّ مِنْها الرُّعْبُ الَّذي قاسَوْهُ في لَحَظاتِهِمُ الأَخيرَةِ. وَكانوا جَميعًا مِنَ الفَلّاحينَ البُسَطاءِ الَّذينَ لَمْ يُمارِسوا الحَرْبَ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يُمْسِكوا أَبَدًا بِبُنْدُقِيَّةٍ. إنَّهُمُ الآنَ مَوْتى. لَقَدْ ماتوا بَعْدَ أَنْ عانَوْا آلامًا رَهيبَةً.

كانَ هؤُلاءِ الفارّونَ يَصيحونَ وَأَنا أَمُرُّ بِهِمْ: «لَقَدِ انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ – فَقَدْ وَصَلَتْ مِدْفَعِيَّةُ المَيْتِ، وَهِيَ تَحْصُدُ رِجالَنا الآنَ حَصْدًا.»

حاوَلْتُ أَنْ أُساعِدَ بَعْضَ الجَرْحى دامِعَ العَيْنَيْنِ. وَناوَلْتُ أَحَدَهُمْ كوبَ ماءٍ وَهُوَ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ الأَخيرَةَ. وَطَلَبَ مِنّي أَنْ أُطْلِعَ زَوْجَتَهُ عَلى نُقودٍ كانَ قَدْ أَخْفاها في شَجَرَةِ تُفّاحٍ. وَشَعَرْتُ في تِلْكَ الأَثْناءِ بِشَيْءٍ ناعِمٍ يَلْمِسُ خَدّي وَالْتَفَتُّ فَرَأَيْتُ وِني (فَرَسَ توم)، وَنَظَرَتِ الفَرَسُ إلَيَّ، ثُمَّ أَدارَتْ وَجْهَها. وَبَدَتْ وَكَأَنَّها تُريدُ أَنْ تَقولَ لي شَيْئًا. وَرَكَضَتْ بِضْعَ خُطُواتٍ، ثُمَّ اسْتَدارَتْ وَنَظَرَتْ إلَيَّ مَرَّةً أُخْرى. عِنْدَئِذٍ أَدْرَكْتُ ما كانَتْ تَعْنيهِ، فَامْتَطَيْتُ حِصاني وَسِرْتُ وَراءَها.

وَصَلْنا إلى خَطِّ المَعْرَكَةِ وَرَأَيْتُ رِجالَ الدُّوقِ واقِفينَ لا حَوْلَ لَهُمْ بِجِوارِ ضِفَّةِ نَهْرٍ عَجَزوا عَنْ عُبورِهِ. وَكانَ المَوْقِفُ يَدْعو إلى الضَّحِكِ وَالرِّثاءِ في آنٍ واحِدٍ: كانَ رِجالُ الدُّوقِ عُزَّلًا مِنَ السِّلاحِ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانوا يَصيحونَ في جُنودِ المَلِكِ الواقِفينَ عَلى الضِّفَّةِ المُواجِهَةِ قائِلينَ: «هَيّا اعْبُروا إلَيْنا وَقاتِلونا.» وَلَمْ يَلْبَثِ الجُنودُ أَنْ أَمْطَروهُمْ بِوابِلٍ مِنَ الرَّصاصِ، فَقَتَلوا الكَثيرينَ مِنْهُمْ.

انْدَفَعَ فُرْسانُ المَلِكِ ناحِيَتَهُمْ، وَخاضوا في صُفوفِهِمْ، وَداسوا عَلى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَيًّا بِحَوافِرِ جِيادِهِمْ. وَكانَتْ صَرَخاتُ القَتْلى وَأَنّاتُ الجَرْحى تَصُمُّ الآذانَ.

واسْتَأْنَفَتْ وِني السَّيْرَ، وَسِرْتُ وَراءَها.

وَقَفَتِ الفَرَسُ أَخيرًا أَمامَ كوخٍ صَغيرٍ وَصَهَلَتْ في صَوْتٍ خَفيضٍ،



وَكَأَنَّها تُنادي تُوم . وَلَمّا لَمْ تَسْمَعْ جَوابًا اقْتَحَمَتِ الكُوخَ .

تَبِعْتُها إلى الدّاخِلِ ، فَرَأَيْتُ تُوم فاجّس راقِدًا مُصابًا بِجُرْحٍ غائِرٍ في جَنْبِهِ الأَيْمَنِ . وَناوَلْتُهُ قَليلًا مِنَ الماءِ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وَرَبَّتَ عَلى فَرَسِهِ قائِلًا : « هَلْ أَصابَ وِني أَذًى ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلّا . »

قالَ : « ضَعْني إذًا عَلى ظَهْرِها . »

أَجْلَسْتُهُ فَوْقَ ظَهْرِ الفَرَسِ ، فانْطَلَقَتْ بِهِ وِني بَعيدًا ، وَكانَ يَبْدو أَنَّها تَعْرِفُ طَريقَها جَيِّدًا . وَسُرْعانَ ما اخْتَفَيا عَنِ الأَنْظارِ .

اسْتَلْقَيْتُ عَلى أَريكَةٍ داخِلَ الكُوخِ وَرُحْتُ في النَّوْمِ .

الفَصْلُ الثّاني وَالثَّلاثونَ

أَسيرٌ

نِمْتُ لِمُدَّةِ ثَلاثِ أَوْ أَرْبَعِ ساعاتٍ . وَلَمّا اسْتَيْقَظْتُ ، رَأَيْتُ الكُوخَ مَليئًا بِالجُنودِ . سارَعْتُ بِقَوْلي : « هٰذا الكُوخُ لَيْسَ مِلْكًا لَكُمْ ، فَما الَّذي جاءَ بِكُمْ إلى هُنا ؟ »

أَجابَ أَحَدُ الجُنودِ : « أَتَيْنا لِكَيْ نَذْهَبَ بِكَ إلى المِشْنَقَةِ . »

قُلْتُ في هُدوءٍ : « إذًا فَلْيَضَعْ كُلٌّ مِنّا سِلاحَهُ في الخارِجِ ، لِنَرى هَلْ تَسْتَطيعونَ أَنْ تَفْعَلوا ذٰلِكَ بِأَيْديكُمْ فَقَطْ . »

فَهَبَّ الجُنودُ ساخِرينَ ، فَقَدْ كانَ عَدَدُهُمْ يُقارِبُ العِشْرينَ ، وَكُنْتُ أُواجِهُهُمْ بِمُفْرَدي . وَسُرْعانَ ما قَبِلوا التَّحَدّي ، فَأَلْقَيْنا جَميعًا بِبَنادِقِنا خارِجَ الكُوخِ

انْدَفَعَ الرَّجُلُ الأَوَّلُ نَحْوي في تَهَوُّرٍ وَحُمْقٍ ، فَأَمْسَكْتُهُ مِنْ قَفاهُ ، وَقَذَفْتُ بِهِ عَلى رُؤوسِ زُمَلائِهِ . ثُمَّ جاءَ الثّاني وَكانَ رَجُلًا ضَئيلَ الجِسْمِ غَيْرَ مُتَمَرِّسٍ بِأَساليبِ القِتالِ ، فَطَرَحْتُ بِهِ خَلْفَ صاحِبِهِ .

عِنْدَئِذٍ خَشِيَ الآخَرونَ بَأْسي ، فَتَرَدَّدوا في الهُجومِ ، وَوَقَفوا يَتَشاوَرونَ مَعًا في هَمْسٍ . وَهُنا مَرَقْتُ وَسْطَهُمْ كَالسَّهْمِ ، وَأَنا أَدْفَعُهُمْ ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ ، وَفي ثَوانٍ مَعْدوداتٍ قَفَزْتُ فَوْقَ ظَهْرِ حِصاني ، وَعَدَوْتُ أُسابِقُ بِهِ



ٱلرِّيحَ . فَأَطْلَقوا بِضْعَ رَصاصاتٍ نَحْوي ، غَيْرَ أَنَّها طاشَتْ جَميعًا ، إِذْ كُنْتُ قَدْ بَعُدْتُ عَنْهُمْ كَثيرًا .

سِرْتُ مَسافَةً طَويلَةً وَلٰكِنْ سُرْعانَ ما وَقَعْتُ في قَبْضَةِ جَماعَةٍ أُخْرى مِنْ جُنودِ ٱلمَلِكِ قَطَعَتْ عَلَيَّ ٱلطَّريقَ ، وَأَجْبَرَتْني عَلى ٱلنُّزولِ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ حِصاني .

صاحَ ٱلجُنودُ وَهُمْ يُحيطونَ بي : « ها هُوَ ذا أَسيرٌ آخَرُ ! أَسيرٌ ضَخْمٌ ! »

أَصْدَرَ قائِدُهُمْ أَمْرَهُ بِأَنْ أُشْنَقَ عَلى إِحْدى ٱلأَشْجارِ ٱلقَريبَةِ . وَلَفُّوا ٱلحِبالَ حَوْلَ جَسَدي ، وَدَفَعوا بي إِلى ٱلشَّجَرَةِ ، فَرَأَيْتُ جُثَّتَيْ رَجُلَيْنِ شُنِقا بِالفِعْلِ .

عِنْدَئِذٍ جاءَ رَجُلٌ مُسْرِعًا عَلى ظَهْرِ حِصانِهِ . وَما إِنْ رَآني حَتّى صاحَ في

ٱلجُنودِ قائِلًا : « ٱرْفَعوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ هٰذا ٱلرَّجُلِ ، فَأَنا أَعْرِفُهُ جَيِّدًا . إِنَّهُ أَسيري أَنا . » ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا :

« هَيَّا ٱتْبَعْني ياجُون رِد ! » كانَ ٱلرَّجُلُ هُوَ جيريمي ستيكْلِز .

وَبَيْنَما كانَ جَوادانا يَسيرانِ مُتَجاوِرَيْنِ عَلى ٱلطَّريقِ ، ٱقْتَرَبَ مِنّي جيريمي وَهَمَسَ قائِلًا : « لَقَدْ أَنْقَذْتَني يَوْمًا – مِنْ آلِ دون ، وَهٰأَنَذا ٱلآنَ أَرُدُّ إِلَيْكَ ٱلجَميلَ . »

الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ وَٱلثَّلاثونَ

ٱلْتَقَيْتُ بِلُورْنا

قالَ لِي جيريمي ستيكِلْز وَنَحْنُ نَسيرُ فِي ٱلطَّريقِ : « حَذارِ أَنْ تَهْرُبَ مِنّي ياجُون وَإِلَّا ٱسْتَوْلَوْا عَلى مَزْرَعَتِكَ ، وَأَلْقَوا ٱلْقَبْضَ عَلى أُمِّكَ وَشَقيقَتَيْكَ فَهُمْ يَعْرِفونَ ٱسْمَكَ . »

أَجَبْتُ : « لَنْ أُحاوِلَ ٱلْفِرارَ ، فَأَنا ٱلْآنَ أَسيرُكَ ، وَسَوْفَ أَذْهَبُ مَعَكَ إِلى لَنْدَن . »

قالَ جيريمي : « سَوْفَ تُحاكَمُ أَمامَ أَحَدِ ٱلْقُضاةِ فِي لَنْدَن ، وَسَوْفَ تُعامَلُ بِٱلْحُسْنى . إِنَّهُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنْ تَأْتِيَ مَعي . »

رَحَلْنا مَعًا إِلى لَنْدَن . وَكُنْتُ أُفَكِّرُ فِي لُورْنا طَوالَ ٱلرِّحْلَةِ وَأَتَساءَلُ : « أَلا تَزالُ لُورْنا تُحِبُّني ؟! »

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى لَنْدَن ، عَلِمْتُ أَنَّ لُورْنا تَعيشُ مَعَ عَمِّها ، لُورْد براندير ، كَما سَمِعْتُ أَنَّ ٱلْمَلِكَةَ تُحِبُّها حُبًّا شَديدًا ، وَأَنَّهُما يَذْهَبانِ إِلى ٱلْاِحْتِفالاتِ ٱلرَّسْمِيَّةِ مَعًا . وَهٰكَذا تَوَجَّهْتُ إِلى قاعَةِ ٱلْاِحْتِفالاتِ ذاتَ يَوْمٍ ، وَوَقَفْتُ فِي ٱلْخارِجِ بَيْنَ جُموعِ ٱلْقادِمينَ أَمَلًا فِي رُؤْيَةِ لُورْنا وَهِيَ تَدْخُلُ فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلِكَةِ .

وَصَلَ ٱلْمَلِكُ وَٱلْمَلِكَةُ إِلى قاعَةِ ٱلْاِحْتِفالاتِ فِي مَوْكِبٍ بَديعٍ ، يَتْبَعُهُما عَدَدٌ

كَبيرٌ مِنَ ٱللُّورْداتِ وَٱلْعُظَماءِ ، وَتَسيرُ خَلْفَ هٰؤُلاءِ مَجْموعَةٌ مِنْ وَصيفاتِ ٱلْمَلِكَةِ ٱلْجَميلاتِ ، تَتَوَسَّطُهُنَّ لُورْنا . وَبَيْنَما أَنا أَنْظُرُ إِلَيْها . ٱلْتَفَتَتْ فَوَقَعَ بَصَرُها عَلَيَّ ، وَأَطالَتِ ٱلنَّظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنَيْها ٱلْجَميلَتَيْنِ ٱلرَّقيقَتَيْنِ .

تَبِعْتُها إِلى داخِلِ ٱلْقاعَةِ . وَبَيْنَما أَنا جالِسٌ هُناكَ ، جاءَني رَجُلٌ يَحْمِلُ رِسالَةً قَصيرَةً مِنْها ، تَطْلُبُ فيها أَنْ أَحْضُرَ لِلِقائِها بِمَنْزِلِها فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي . وَذَهَبْتُ فِي ٱلْمَوْعِدِ ٱلْمُحَدَّدِ إِلى مَنْزِلِ لُورْد براندير وَفَتَحَتْ جُويني كارْفاكْس ٱلْبابَ ، وَقادَتْني إِلى حُجْرَةٍ فَسيحَةٍ فاخِرَةِ ٱلْأَثاثِ . وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ دَخَلَتْ لُورْنا

كُنْتُ مُتَلَهِّفًا لِسَماعِ أَخْبارِها . وَلَمّا عاتَبْتُها عَلى عَدَمِ إِرْسالِ خِطاباتٍ ، قالَتْ : « لَقَدْ كَتَبْتُ لَكَ عِدَّةَ رَسائِلَ مُنْذُ أَنْ وَصَلْتُ إِلى لَنْدَن ، وَلٰكِنَّني ٱكْتَشَفْتُ أَخيرًا أَنَّ جُويني قَدْ أَخْفَتْها جَميعًا ، وَأَنَّها لَمْ تَبْعَثْ بِواحِدَةٍ مِنْها إِلَيْكَ لِأَنَّها كانَتْ تُريدُني أَنْ أَتَزَوَّجَ بِلُورْد . إِنَّني أَكْرَهُ ٱلْحَياةَ فِي لَنْدَن . إِنَّ ٱلرِّجالَ هُنا يَتَوَدَّدونَ إِلَيَّ مِنْ أَجْلِ مالي فَحَسْبُ . أَنا لا أُفَكِّرُ إِلَّا فيكَ ، وَأُريدُكَ أَنْ تَأْتِيَ كَثيرًا لِرُؤْيَتي . »

الفَصْلُ الرّابِعُ وَالثَّلاثونَ

لُصوصُ اللَّيْلِ

في أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَماسيِّ شَهْرِ سِبْتِمْبِر ، كُنْتُ أَمُرُّ أَمامَ مَنْزِلِ لُورْد براندير فَرَأَيْتُ ثَلاثةَ رِجالٍ يَقِفونَ في ظِلالِ الشَّجَرِ قَريبًا مِنَ المَنْزِلِ . قُلْتُ في نَفْسي : « يَبْدو أَنَّ الرِّجالَ مِنَ اللُّصوصِ .. سَوْفَ أَنْتَظِرُ لِأَكْشِفَ عَمّا يُدَبِّرونَ . » وَاخْتَبَأْتُ بَيْنَ الظِّلالِ .

أُطْفِئَتِ الأَنْوارُ الَّتي كانَتْ تُشِعُّ مِنْ نَوافِذِ البَيْتِ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ سَمِعْتُ نِداءً خَفيضًا يَأْتي مِنْ وَراءِ إِحْدى الأَشْجارِ القَريبةِ . وَمَرَّ الرِّجالُ الثَّلاثةُ بَعْدَ ذٰلِكَ مُباشَرةً مِنْ أَمامي ، ثُمَّ فُتِحَتْ إِحْدى النَّوافِذِ ، وَمَرَقَ الثَّلاثةُ مِنْ خِلالِها إلى داخِلِ البَيْتِ . وَأَسْرَعْتُ وَدَخَلْتُ وَراءَهُمْ مِنْ نَفْسِ النّافِذةِ . رَأَيْتُ خادِمةً تَسيرُ حامِلةً مِصْباحًا ، وَمِنْ وَرائِها الرِّجالُ الثَّلاثةُ . وَما إِنْ أَتَوْا إلى غُرْفةِ لُورْد براندير حَتّى اقْتَحَموا البابَ وَدَخَلوها .

تَسَلَّلْتُ عَلى أَثَرِهِمْ إلى داخِلِ الحُجْرةِ ، فَرَأَيْتُ أَحَدَ الرِّجالِ يُصَوِّبُ بُنْدُقِيَّةً إلى لُورْد براندير ، وَأَخَذَ زَميلاهُ يُحاوِلانِ فَتْحَ صُنْدوقٍ ضَخْمٍ . وَقالَ الرَّجُلُ الَّذي يُصَوِّبُ سِلاحَهُ إلى لُورْد براندير : « أَخْبِرْني أَيْنَ المِفْتاحُ وَإِلّا قَتَلْتُكَ .. سَأَعُدُّ مِنْ واحِدٍ إلى عَشَرةٍ ، ثُمَّ أُطْلِقُ الرَّصاصَ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَأَجابَ لُورْد براندير : « لَنْ أُخْبِرَكَ بِمَكانِهِ . »

وَبَدَأَ اللِّصُّ في العَدِّ : « واحِد – اثْنان – ثَلاثة ... »

فَانْدَفَعْتُ إلى وَسَطِ الحُجْرةِ ، وَأَطَحْتُ بِبُنْدُقِيَّتِهِ بِضَرْبةٍ واحِدةٍ مِنْ عَصايَ ، ثُمَّ هَوَيْتُ بِالعَصا عَلى رَأْسِهِ ، فَسَقَطَ فاقِدًا الوَعْيَ .

أَسْرَعَ اللِّصّانِ الآخَرانِ بِمُهاجَمَتي ، وَبِيَدِ واحِدٍ مِنْهُما بُنْدُقِيَّةٌ . فَرَفَعْتُ مِنْهُما بِسُرْعةٍ خاطِفةٍ عَنِ الأَرْضِ ، وَاتَّخَذْتُهُ سِتْرًا أَحْتَمي خَلْفَهُ . وَأَطْلَقَ اللِّصُّ الَّذي يَحْمِلُ البُنْدُقِيَّةَ النّارَ فَأَصابَتِ الرَّصاصةُ زَميلَهُ الَّذي كُنْتُ أَحْتَمي وَراءَهُ ، فَصَرَعَتْهُ في الحالِ . وَأَمْسَكْتُ بِاللِّصَّيْنِ ، وَقَيَّدْتُ أَيْدِيَهُما وَأَرْجُلَهُما بِالحِبالِ .

جيءَ بِاللِّصَّيْنِ في الصَّباحِ التّالي أَمامَ القاضي ، وَكانا رَجُلَيْنِ مَشْهورَيْنِ ...نهما الشَّديدِ لِلْمَلِكِ . وَسُرَّ القاضي لِإِمْساكي بِهِما سُرورًا بالِغًا ، وَكَتَبَ خِطابًا لِلْمَلِكِ بِما حَدَثَ – كَما رَوى لُورْد براندير أَيْضًا لِلْمَلِكِ كَيْفَ أَمْسَكْتُ بِهٰذَيْنِ المُجْرِمَيْنِ .

في عَصْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، أَتى رَجُلٌ لِيَصْطَحِبَني إلى القَصْرِ المَلَكِيِّ ، لِأَمْثُلَ أَمامَ المَلِكِ هُناكَ . فَارْتَدَيْتُ أَفْخَرَ ثِيابي ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ إلى قَصْرِ صاحِبِ الجَلالةِ .

عِنْدَما دَخَلْتُ قاعةَ العَرْشِ ، رَأَيْتُ المَلِكةَ أَيْضًا ، تَجْلِسُ إلى جِوارِ المَلِكِ .

قالَتِ المَلِكةُ وَهِيَ تَتَطَلَّعُ إِلَيَّ : « إِذًا فَأَنْتَ جون رد ، الَّذي طالَما حَدَّثَتْنا عَنْهُ عَزيزَتُنا لورنا . »

أَضافَ ٱلمَلِكُ : « لَقَدْ أَسْدَيْتَ لي خِدْمَةً جَليلةً . هَيَّا ارْكَعْ ، ياجُون رد ! »

جَثَوْتُ راكِعًا على رُكْبَتَيَّ . وَلَمَسَ ٱلمَلِكُ كَتِفَيَّ ، ثُمَّ قالَ :

« انْهَضْ ، ياسِيْر جُون رد . »

وَهٰكَذا مَنَحَني ٱلمَلِكُ لَقَبَ سِيْر وَأَصْبَحْتُ بِهٰذا ٱللَّقَبِ مِنْ كِبارِ رِجالِ ٱلدَّوْلَةِ .



الفصلُ الخامسُ والثلاثون

مَعْرَكةُ الوادي الثانية

عُدْتُ إلى مَزْرَعتي حُرًّا، بعْدَ أنْ كرَّمني المَلِكُ. وكُنْتُ حزينًا لفراقِ لُورْنا، غَيْرَ أنَّني كُنْتُ مُرَحِّبًا بالعَوْدةِ، لِأنَّني أنْفَقْتُ في لَنْدَنْ مبالغَ كبيرةً من المالِ.

عِنْدَما عُدْتُ إلى المَزْرَعةِ، أقامَ النّاسُ وليمةً هائلةً تكريمًا لي وسارَ العملُ في المَزْرَعةِ كَسابِقِ عَهْدِهِ. غَيْرَ أنَّ آلَ دُون لَمْ يَكُفُّوا عن القَتْلِ والسَّلْبِ في المِنْطَقةِ. فقَدْ هاجموا بَيْتَ رجُلٍ يُدْعى كِت باذْكوك وقتلوا زوجتَهُ وخطفوا طفلَهُ، ثُمَّ ولَّوْا هاربين بعدَ أنْ أحْرَقوا المَنْزِلَ. ولقَدْ أثارَتْ هٰذه الجرائمُ غضبَ جميعِ أهالي المِنْطَقةِ، فتجمَّعوا وقَرَّروا أنْ يَشُنُّوا الحرْبَ ضدّ آلِ دُون، لِيَضَعوا نهايةً لِكُلِّ آلامِهِمْ وَمَتاعِبِهِمْ.

تَمَثَّلَتِ الخُطَّةُ في أنْ نَبْعَثَ بأحدِ رجالِنا إلى آلِ دُون لِيُخْبِرَهُمْ أنَّ جماعةً مُسافِرةً تَحْمِلُ كَمِّيَّةً كبيرةً مِنَ الذَّهَبِ، سَوْفَ تَمُرُّ على الطَّريقِ في لَيْلةٍ مُعَيَّنةٍ. وَعِنْدَما يُغادِرُ آلُ دُون واديَهُمْ في تِلْكَ اللَّيْلةِ لِقَطْعِ الطَّريقِ على المُسافِرينَ وَسَلْبِ الذَّهَبِ المَزْعومِ، تُهاجِمُ مَجْموعةٌ مِنْ رجالِنا بَوّابةَ الوادي، على حينِ تَكْمُنُ مجموعةٌ أُخْرى بالقُرْبِ مِنْ صَخْرةِ الشَّلّالِ (وهي الصَّخْرةُ التي كُنْتُ أتَسَلَّقُها فيما مضى عِنْدَ ذهابي بمُقابلةِ لُورْنا في الوادي) وعِنْدَما يَبْدَأُ القتالُ بَيْنَ آلِ دُون وَرِجالِنا عِنْدَ البَوّابةِ، يُطْلِقُ زَميلٌ لنا راصِدٌ

إلى قِمَّةِ التَّلِّ، هُوَ جُون فراي، مِدْفَعَهُ، فَتُسْرِعُ المَجْموعةُ الثّانيةُ إلى صُعودِ الشَّلّالِ.

كانَ القمرُ يُرْسِلُ ضَوْءَهُ فَوْقَ التِّلالِ حينَ خرَجْتُ على رَأْسِ القُوَّةِ الثّانِيةِ



ٱلْمُوَجَّهة إلى ٱلشَّلَّالِ . وَطالَ ٱنْتِظارُنا هُناكَ ، حَتّى راوَدَني ٱلشَّكُّ في أَنَّ حُود عِراي قَدْ عَمَّهُ ٱلنُّعاسُ . وَأَخيرًا سَمِعْنا صَوْتَ ٱلْمِدْفَعِ

صِحْتُ في رِفاقي قائِلًا : « هَيّا يا رِجالُ ٱرْفَعوا بَنادِقَكُمْ إلى أَعْلى وَحَذارِ مِنْ أَنْ يُطْلِقَ أَحَدُكُمْ ٱلنّارَ عَلى زَميلِهِ وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّقونَ . »

وَصَعِدْنا إلى قِمَّةِ ٱلشَّلّالِ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، ثُمَّ هَبَطْنا عَلى ٱلنّاحِيَةِ ٱلأُخْرى ، وَتَوَغَّلْنا داخِلَ ٱلوادي . وَٱقْتَحَمْنا مَنْزِلَ كارْفَر ، وَأَشْعَلْنا فيهِ ٱلنّارَ . وَرَأَيْتُ هُناكَ وَلَدًا صَغيرًا ، هُوَ ٱبْنُ كارْفَر ، فَأَنْقَذْتُهُ ، ثُمَّ ٱنْطَلَقْنا إلى باقي ٱلمَنازِلِ ، وَأَخْرَجْنا مِنْها ٱلنِّساءَ وَٱلأَطْفالَ ، وَأَشْعَلْنا فيها ٱلنّارَ .

صاحَتِ ٱلنِّساءُ : « إِنَّ بَلْدَةَ آلِ دُون تَحْتَرِقُ ! »

وَٱنْتَشَرَ ٱلضَّوْءُ ٱلأَحْمَرُ في أَرْجاءِ ٱلوادي ، وَٱنْعَكَسَ فَوْقَ سَطْحِ ٱلنَّهْرِ وَفَوْقَ وُجوهِ ٱلنِّساءِ وَٱلأَطْفالِ .

وَكَما تَوَقَّعْنا ، عادَ آلُ دُون مِنَ ٱلبَوّابَةِ تارِكينَ عَدَدًا قَليلًا هُناكَ . وَكانَ ٱلعائِدونَ بِقِيادَةِ تشارْلي دُون . وَرَأَيْناهُمْ بِوُضوحٍ عَلى ضَوْءِ ٱلنّارِ ، فَأَطْلَقَ رِجالي ٱلرَّصاصَ عَلَيْهِمْ . وَشاهَدْتُ كيت بادْكوك يَقْتُلُ تشارْلي ، فَقَدْ كانَ تشارْلي هُوَ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي خَطَفَ طِفْلَهُ .

بَحَثْتُ عَنْ كارْفَر فَحَسْبُ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ .

لَنْ أَتَحَدَّثَ كَثيرًا عَنْ هَوْلِ تِلْكَ ٱلمَعْرَكَةِ ، وَعَمّا تَخَلَّلَها مِنْ قَتْلٍ مُرَوِّعٍ . وَلٰكِنْ يَكْفي أَنْ أَقولَ إِنَّهُ عِنْدَما بَزَغَ ٱلفَجْرُ ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ مِنْ

آل دُون سِوى ٱثْنَيْنِ هُما ٱلمُسْتَشارُ وَكارْفَر ، وَأَنَّ بُيوتَ ٱلوادي أَصْبَحَتْ أَطْلالًا سَوْداءَ يَتَصاعَدُ مِنْها ٱلدُّخانُ ٱلكَثيفُ .

بَقِيَ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكُمْ ما حَدَثَ لِباقي آلِ دُون ٱلَّذينَ كانوا خارِجَ ٱلوادي أَثْناءَ ٱلمَعْرَكَةِ :

خَرَجَتْ جَماعَةٌ مِنْهُمْ بِقِيادَةِ كارْفَر لِسَرِقَةِ ٱلذَّهَبِ ٱلمَزْعومِ . وَكانَ سيمون هُوَ رَجُلَنا ٱلَّذي بَعَثْنا بِهِ إلى آلِ دُون لِيُخْبِرَهُمْ بِقِصَّةِ ٱلذَّهَبِ وَخَرَجَ مَعَ كارْفَر وَجَماعَتِهِ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ ، وَذَهَبَ بِهِمْ إلى مَنْزِلٍ مَهْجورٍ ، كانَ يَأْوي إِلَيْهِ ٱلمُطارَدونَ مِنَ ٱلمُجْرِمينَ وَٱلخارِجينَ عَلى ٱلقانونِ ، حَيْثُ جَلَسوا يَتَرَقَّبونَ مُرورَ ٱلمُسافِرينَ ٱلمَزْعومينَ ٱلَّذينَ يَحْمِلونَ ٱلذَّهَبَ . وَطالَ بِهِمُ ٱلانْتِظارُ دونَ جَدْوى . وَفي أَثْناءِ ذٰلِكَ ، تَمَكَّنَ سيمون مِنْ أَنْ يُغافِلَهُمْ وَيَصُبَّ ماءً داخِلَ بَنادِقِهِمْ فَأَفْسَدَها .

فَجْأَةً داهَمَتْهُمْ جَماعَةٌ مِنْ رِجالِنا داخِلَ ٱلمَنْزِلِ ، وَصَوَّبَتِ ٱلبَنادِقَ إلى كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ . وَحاوَلَ آلُ دُون إِطْلاقَ ٱلنّارِ ، وَلٰكِنَّ بَنادِقَهُمْ لَمْ تَنْطَلِقْ . وَحارَبوا بِشَراسَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ رِجالَنا تَمَكَّنوا مِنَ ٱلقَضاءِ عَلَيْهِمْ جَميعًا ، فيما عَدا كارْفَر ٱلَّذي ٱسْتَطاعَ أَنْ يَقْفِزَ فَوْقَ ظَهْرِ حِصانِهِ ٱلضَّخْمِ وَيُفْلِتَ بِهِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ .



الفَصْلُ ٱلسَّادِسُ وَٱلثَّلاثونَ

مَصْرَعُ كارْفَر دُون

عادَتْ لُورْنا مِنْ لَنْدَن ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِزَواجِنا . وَأَتَتْ إِلى ٱلحَفْلِ حُشودٌ كَبيرةٌ مِنَ ٱلنَّاسِ .

تَقَدَّمْتُ نَحْوَ جُموعِ ٱلنَّاسِ مُتَأَبِّطًا ذِراعَ لُورْنا . وَكانَتْ تَرْتَدي ثَوْبَ ٱلزِّفافِ ٱلأَبْيَضَ ٱلبَديعَ .

وَضَعْتُ خاتَمَ ٱلزَّواجِ في إِصْبَعِها ، فَرَفَعَتْ عَيْنَيْها إِلى عَيْنَيَّ . وَلِلتَّوِّ دَوَّتْ طَلْقَةٌ نارِيَّةٌ ، وَسَقَطَتْ لُورْنا عَلى رُكْبَتَيَّ . وَلَطَّخَتْ دِماؤُها ثَوْبَها ٱلأَبْيَضَ ، وَسالَتْ فَوْقَ ٱلأَرْضِ . وَأَرْقَدْتُها بَيْنَ ذِراعَيْ وَالِدَتي ، ثُمَّ ٱنْدَفَعْتُ إِلى ٱلخارِجِ لِأُمْسِكَ بِٱلمُجْرِمِ ٱلَّذي ٱرْتَكَبَ هٰذِهِ ٱلفَعْلَةَ .. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ ٱلمُجْرِمَ هُوَ كارْفَر دُون !

لَمْ أَكُنْ أَحْمِلُ بُنْدُقِيَّتي ، وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُقاتِلَهُ بِيَدَيَّ . فَقَفَزْتُ إِلى ظَهْرِ جَوادي وَصَعِدْتُ بِهِ ٱلتَّلَّ . وَرَأَيْتُ أَمامي ، عَلى بُعْدِ رُبْعِ ميلٍ تَقْريبًا ، رَجُلًا يَرْكَبُ حِصانًا ضَخْمًا أَسْوَدَ ٱللَّوْنِ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ كارْفَر .

قُلْتُ لِنَفْسي : « إِمَّا أَنْ أَقْتُلَ كارْفَر أَوْ يَقْتُلَني . »

كانَ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّتَهُ ، كَما كانَ يَحْمِلُ ٱبْنَهُ ٱلصَّغيرَ إِنْسي أَمامَهُ عَلى ٱلجَوادِ . وَتَعَقَّبْتُهُ ، وَهُوَ يَصْعَدُ ٱلتَّلَّ ، إِلى أَنْ أَتى قُرْبَ ٱلمُسْتَنْقَعِ ٱلكَبيرِ . وَهُنا تَوَقَّفَ كارْفَر بُرْهَةً ، ثُمَّ ٱسْتَدارَ فَرَآني أَعْدو خَلْفَهُ . وَٱسْتَحَثَّ جَوادَهُ عَلى ٱلجَرْيِ بِسُرْعَةٍ أَكْثَرَ ، وَلٰكِنَّ ٱلتَّعَبَ كانَ قَدْ نالَ مِنَ ٱلجَوادِ . وَكُنْتُ قَدِ ٱنْتَزَعْتُ فَرْعًا مِنْ إِحْدى ٱلأَشْجارِ أَثْناءَ مُروري بِها ، وَحَمَلْتُهُ مَعي .

إِسْتَدارَ كارْفَر بِجَوادِهِ وَأَطْلَقَ النّارَ ، فَأَصابَتْني الرَّصاصةُ ، غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَهْتَمَّ ؛ فَلَمْ أَكُنْ أُفَكِّرُ إِلّا في عَدُوّي . وَأَسْرَعْتُ وَراءَهُ ، وَهَوَيْتُ عَلى جَوادِهِ بِضَرْبَةٍ عَنيفَةٍ مِنَ الفَرْعِ الضَّخْمِ الَّذي كُنْتُ أَحْمِلُهُ . فَسَقَطَ الجَوادُ عَلى الأَرْضِ ، وَمَعَهُ كارْفَر . وَلَمْ يَسْتَطِعْ كارْفَر أَنْ يَنْهَضَ في الحالِ ، فَقَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ جَوادي ، وَوَقَفْتُ أَنْتَظِرُ . وَجَرى ابْنُهُ الصَّغيرُ نَحْوي وَنَظَرَ إِلَيَّ وَالخَوْفُ يَمْلَأُ عَيْنَيْهِ . وَرَبَّتُّ عَلى كَتِفِهِ بِرِقَّةٍ قائِلًا : « يا عَزيزي إِنْسي ، اجْرِ بِسُرْعَةٍ فَوْقَ التَّلِّ ، وَانْتَقِ لي بَعْضَ الأَزْهارِ . »

انْطَلَقَ الصَّبِيُّ بَعيدًا عَلى الفَوْرِ .

نَهَضَ كارْفَر واقِفًا حَوْلَهُ باحِثًا عَنْ بُنْدُقِيَّتِهِ ، غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ قَدْ طَوَّحْتُ بِها بَعيدًا . وَهٰكَذا اضْطُرَّ لِأَنْ يُواجِهَني بِيَدَيْهِ فَقَطْ .

كانَتْ تَفْصِلُ بَيْنَنا بُقْعَةٌ تَكْسوها الحَشائِشُ . وَأَعْطَيْتُهُ الفُرْصَةَ لِأَنْ يَبْدَأَ بِالهُجومِ . وَفَجْأَةً أَحاطَني بِذِراعَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ ، وَضَغَطَ بِشِدَّةٍ هائِلَةٍ عَلى جَسَدي ، فَكَسَرَ لي ضِلْعًا . وَلٰكِنَّني أَطْبَقْتُ عَلى عُنُقِهِ بِكِلْتا يَدَيَّ . وَحاوَلَ جاهِدًا أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنّي فَلَمْ يُفْلِحْ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ عَجَزَ تَمامًا عَنِ الحَرَكَةِ ، فَطَوَّحْتُ بِهِ بَعيدًا عَنّي .

وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ في ازْدِراءٍ قائِلًا : « يَكْفيكَ هٰذا العِقابُ يا كارْفَر ! إِنَّكَ مَهْزومٌ ، وَسَأَصْفَحُ عَنْكَ . »

لٰكِنَّ قَدَمَيْهِ كانَتا قَدِ انْزَلَقَتا في المُسْتَنْقَعِ ، وَأَخَذَ يَغوصُ بِبُطْءٍ ، فَارْتَمى عَلى ظَهْرِهِ باسِطًا ذِراعَيْهِ ناحِيَةَ السَّماءِ ، وَلٰكِنَّني عَجَزْتُ عَنْ مُساعَدَتِهِ أَوْ إِنْقاذِهِ – فَقَدِ ابْتَلَعَهُ المُسْتَنْقَعُ .

الفَصْلُ السّابِعُ وَالثَّلاثونَ

خاتِمَةُ القِصَّةِ

امْتَطَيْتُ جَوادي ، وَعُدْتُ إِلى البَيْتِ أَحْمِلُ مَعي وَلَدَ كارْفَر الصَّغيرَ . كُنْتُ أَسيرُ نَحْوَ المَنْزِلِ ، وَكَأَنَّني في حُلْمٍ مُزْعِجٍ ، فَلَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ تَفْكيري سِوى مَوْتِ لورْنا . وَما إِنْ وَصَلْتُ إِلى بابِ البَيْتِ حَتّى سَقَطْتُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ الجَوادِ . وَسارَعَتْ أُمّي تُعاوِنُني عَلى الدُّخولِ .

صِحْتُ : « لَقَدْ قَتَلْتُهُ .. قَتَلْتُهُ كَما قَتَلَ لورْنا . وَالآنَ ، دَعوني أَراها . إِنَّها لي أَنا .. لي أَنا حَتّى بَعْدَ المَوْتِ ! »

قالَتْ أُمّي : « لٰكِنَّها لَمْ تَمُتْ ، كَما أَنَّهُ يَجِبُ أَلّا تَراها وَأَنْتَ بِهٰذا الشَّكْلِ ، وَجَسَدُكَ كُلُّهُ مُلَطَّخٌ بِالدَّمِ . » ، ثُمَّ قادَتْني إِلى غُرْفَتي .

رَقَدَتْ لورْنا في فِراشِها عِدَّةَ أَيّامٍ بَيْنَ الحَياةِ وَالمَوْتِ ، وَلٰكِنَّها أَخَذَتْ تَسْتَرِدُّ صِحَّتَها بِبُطْءٍ .

كُنْتُ راقِدًا مَريضًا في فِراشي ، أَتَطَلَّعُ في حُزْنٍ إِلى يَدَيَّ اللَّتَيْنِ كانَتا قَوِيَّتَيْنِ ، وَتَبْدوانِ الآنَ ضَعيفَتَيْنِ مِثْلَ يَدَيْ طِفْلٍ صَغيرٍ ، حينَ دَخَلَتْ أُخْتي آني الغُرْفَةَ وَبِصُحْبَتِها لورْنا . وَلَمْ تَلْبَثْ آني أَنْ غادَرَتِ الحُجْرَةَ ، وَأَغْلَقَتِ البابَ وَراءَها . وَاقْتَرَبَتْ مِنّي لورْنا ، وَرَبَّتَتْ عَلى يَدي ، وَعِنْدَئِذٍ شَعَرْتُ بِالحَياةِ تَعودُ إِلَيَّ .

وَهٰكَذا تَنْتَهي قِصَّتُنا . غَيْرَ أَنَّ حُبَّنا وَسَعادَتَنا – كَزَوْجَيْنِ – لَمْ يَكُنْ لَهُما نِهايَةٌ . فَكانَ جَمالُ لورْنا وَرِقَّتُها يَزْدادانِ عامًا بَعْدَ عامٍ ، وَيَزْدادُ مَعَهُما حُبُّنا وَسَعادَتُنا .



الروايات المشهورة

١ ــ جين إير
٢ ــ فرانكنشتاين
٣ ــ مونفليت
٤ ــ دراكــولا
٥ ــ لورنــا دون
٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 105